9 me Année No. 407

Lundi - 21 - 4 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

أحمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢١ أبريل سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

١٦٠٢٩

المبـــالاة

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب إلىّ الأديب صاحب الإمضاء من خطاب يقول فيه بعد تمهيد :

« إن الإنسان يفيد دائماً من التجارب المادية . فالأطباء مثلاً يهتدون بالتجارب الماضية ويطبقون فى فهم آخر ما يصل إليه العلم ؛ ومن ثم كان التقدم الملحوظ فى الطب وسائر العلوم والفنون والآداب . فلماذا لا تسير الأمور كذلك فى معالجة المشاكل النفسية ؟ أريد أن أقول إن الإنسان – كل إنسان – لا يريد أو لا يستطيع أن يطبق القاعدة السابقة على مشاكله النفسية . فمثلاً حدثنا الـكثير من الفلاسفة والـكتاب عما انتابهم من أزمات منها ما أخافهم أو أيأسهم أو آلمهم ، ثم أردفوا ذلك بأن وضعوا تحت أعيننا تجاربهم وتجاوزهم هذا الطور إلى طور آخر ... وعندنا مثلاً أقرب هو صديقكم المازنى الذى كتب كثيراً مصوراً ما كان يلح عليه فى شبابه من يأس وخوف ، محاولاً أن يقنعنا أن كل ذلك كان عبثاً لا طائل تحته ، وأن الإنسان يستطيع أن يعيش دون أن يكون بحاجة إلى شيء من ذلك ... فلماذا لا يعتبر الشباب بقول المازنى فيأخذ الحياة من حيث انتهى ، ويقضى شبابه فى أنس وراحة وسعادة ؟ لماذا يأبى

كل امرىء إلا أن يبهج فى حياته على طريقته الخاصة ، فيقبل على ما يسلمه للخوف والشقاء ويعج فى الألم واليأس ؟... وأريد أن أقول أيضاً : إذا قيض للانسان أن ينتفع بتجارب غيره النفسية على النحو الذى ينتفع به فى التجارب المادية ، أيكون هذا رقياً وازدهاراً ، أم عندئذ تنتفى الحياة ؟ »

وبعد إسهاب فى هذا المعنى يقول الأديب : أرجو أن يتيح لنا الأستاذ ساعة نهرب فيها من حديث السياسة والحرب ونأنس به فيها إلى ظل الأدب الوريف ، وأن يكون ذلك على صفحات « الرسالة » ، فإنى من قرائها المدمنين

« دمنهور » صموع المسيرى

ويحضرنى فى الإجابة عن هذه الأسئلة قول الكاتب الإنجليزى الحديث ستيفنسن Stevenson إننا حين نقول للشاب : هكذا أيضاً كنا نفهم فى شبابنا فنحن نؤيده ولا نفنده بهذه الحجة !

وهو قول حق نافذ إلى اللباب ؛ لأننا ندل به على أن هذا الفهم الذى ننقده ونحاول أن ننفى الشباب عنه إنما هو من طبيعة الشباب التى لا محيد عنها ولا استثناء فيها . فكل شاب إذن خليق أن يفهم الأمور كما فهمها الشاب الذى نلومه ونهديه إلى خطئه !

وهكذا يسألنا الأديب : لماذا لا يعتبر الشاب بقول صديقنا المازنى فيأخذ الحياة من حيث انتهى ويقضى شبابه فى أمن وراحة وسعادة !

والجواب أن صديقنا المازنى نفسه لو عاد إلى الشباب لما اعتبر هذا الاعتبار ولا سلك فى الحياة إلا المسلك الذى عدل عنه بعد حين

وخيراً تصنع الحياة إذ تجعل كل حى مستقلاً بحياته عن التجارب النفسية التى جربها سابقوه . فليس من الحياة أن يعيش الإنسان عالة على شعور غيره ، وليس هذا بالمستطاع لو حسن أن يكون

وفرق شاسع بين المعلومات والتجارب النفسية فى هذا المجال، فإننى لا أستطيع أن أعرف وحدى جميع المعارف الإنسانية التى عرفها السابقون وأضاف إليها اللاحقون ما أضافوه ؛ ولكنى أستطيع أن أجرب وحدى ما جرّبه كل فرد وحده ، ولا خسارة على فى ذلك !

لا بل الخسارة كل الخسارة فى تركى إياه يشعر« بالنيابة » عنى والغائى لشعورى أنا معتمداً على ما جرّبه واهتدى إليه . أما المعلومات فيكفى أن تنتقل إلىّ ليصبح نصيبى منها ونصيب من عرفوها جميعاً على قدر سواء ، فلا خسارة فى انتقالها من جيل إلى جيل

وينبغى أن نذكر هنا أن التجربة ليست مسألة فهم ولكنها مسألة رياضة

فالحصان الوحشى الذى تربطه بالقيود وتقيم من حوله الموانع لتمنع جماحه وتسلس قياده لا يثوب إلى السلاسة لأنه فهم أنها خير من الجماح ، أو وازن بينهما موازنة فكرية فاختار أفضلهما فى الرأى والمنطق ؛ ولكنه « ريض » على حالة لا يستطيع غيرها ولو فهم أن غيرها هو الصواب

ولو كانت التجارب مسألة فهم لما استعصى خطبها على أحد، فإن حكمة الحكماء الذين قالوا إن « الصبر مفتاح الفرج » تفهم لفظاً ومعنى فى لمحة عين ، ولكن النفس لا تراض عليها قبل سنين حافلة بالحوادث والدروس ؛ وقد تمضى السنون ولا تبلغ بها مبلغ الرياضة على تلك الكلمات الثلاث !

إن الأقدمين قد أكلوا فشبعوا . فهل نشبع نحن لأن الأقدمين قد عرفوا الشبع من قبلنا دون أن نأكل كما أكلوا ؟

إذا جاز هذا جاز مثله أن نشبع من الحوادث والتجارب دون أن « نأكلها » كما أكلها الذين من قبلنا

ولكنهما خطتان بمنزلة واحدة من البعد والاستحالة : فألوف الألوف لا يشبعونك بما تناولوا من غذاء ؛ وألوف الألوف لا يعطونك التجربة التى تناولوها من حوادث الأيام ؛ وإنما الشبع شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف جسمك ؛ وكذلك التجربة شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف نفسك ، ولو رأيت أمامك كل المجربين وسمعت وصف التجارب من كل لسان مبين

والرجل بمفرده قد يجرب الحالة الواحدة على أنماط وألوان لا يحيط بها الإحصاء ؛ فيخونه عشرة أصدقاء ولا تحذره إحدى هذه الخيانات أن يستهدف لغيرها لأنها مختلفة المنحى والنتيجة .

ويحب عشر نساء ولا تعطيه إحداهن ما تعطيه الأخريات . ويسافر إلى القطر الواحد مرات ثم يعود من كل مرة بتجربة جديدة لا تنسخ ما قبلها ولا تنسخها التي تليها

وهذا معنى التجربة ، وهذا معنى الحياة

والأصل في الحياة المبالاة بالحوادث والمؤثرات ، لأن الكائن الحي كجهاز التلقي والإرسال الذي لا ينعزل مما حوله ولا تنقطع الصلات بين العالم الخارجي وبينه . فإذا انتهى به الأمر إلى تجاهل الحوادث وقلة الاكتراث لها فتلك ضرورة طارئة تراض عليها النفس بعد معالجتها وتكرير علاجها ، ثم يكون الاستقرار عليها بمثابة الصدأ الذي يمنع الاتصال ، فلا تلقٍّ ولا إرسال، أو يكون على أحسنه بمثابة رفع المفتاح وتعطيل الأداء والاستقبال

وربما فهم ذلك في بعض مراحل الحياة التالية ؛ أما الابتداء به في المراحل الأولى فغير مفهوم ولا معهود ، إلا أن يكون عن نقص في التكوين وعجز عن التجربة ما يراد منها وما لا يراد

قيل إن السعيد من وعظ بغيره . ولكن أين هو السعيد ؟ وما جدواه من السعادة إن كان اتعاظه «شعوراً» غير أصيل فيه ! أما إن اتعظ أصيلاً في شعوره فهو هنا مبتدئٌ وليس بتابع ، وهو يجتنب الخطر لأنه أحسه واختبر منه ما يدعوه إلى اتقائه . فليس هو بعالة على تجربة غيره ، وليست تجربة غيره إلا تذكيراً لناسٍ أو تنبيهاً لغافل

ولنتخيل عالماً يستريح الناس فيه من «المبالاة» فماذا يبقى لهم من الحياة ؟

ماذا يبقى من الحياة لمن لا يبالون الخوف والرجاء ولا يحنون إلى ماض ولا يتوقون إلى غد ولا يحفلون بحاضر ؟

العريان في القافلة مرتاح

وهذا عرى في قافلة الحياة !

ولا شك أن التجارب تعلمنا كثيراً أن العناء لا يفيد ، ولكن من هذا الذي يعاني باختياره ؟ ومن هذا الذي يعاني لفائدة يلتمسها من عنائه ؟

إنما يعاني الإنسان على حسب ما عنده من طاقة العناء لا على حسب ما يستفيده من العناء

ولهذا يوجد بين الناس آحاد معدودون يطلبون العظائم ويبلغونها ولا يقنعون بما بلغوه منها ، وينظر إليهم ملايين الملايين فلا يتحركون لمثل ما ابتغاه أولئك الآحاد المعدودون ، لأن المحرك هنا هو الطاقة الموجودة وليس هو الفائدة التي لم توجد بعد ولا يُضمن وجودها

إن كرة المطاط تنضرب إلى الأرض مائة مرة ولا تزال تعلو وتسفل في أثر كل ضربة . ثم تنضرب بعد هذا فتقع حيث هي لا علو ولا استفال . ألأنها علمت أن العلو لا يفيد ؟ كلا . . . بل لأنها أضاعت مرونتها التي تعلو بها وتهبط . . . فمن الذي يطلب من الكرات الجديدة أن تعتبر بمصير هذه الكرة «المجربة» فتقع حيث هي وتضيع من مرونتها باختيارها ما ضاع «بالتجربة» على غير اختيار ؟

ولست أقول للكرة التي سكنت إلى موضعها : غالطي الحقيقة وعاودي الوثوب وقد راضتك الحوادث على اجتنابه ! ! ولكني أقول للكرة الجديدة : إياك أن تغالطي الحقيقة وأن تسكني لأن غيرك قد سكن من قبلك . بل اسكني حين يواتيك السكون ولا تقدرين على غيره ؛ واطلعي وانزلي ما دامت لك طاقة بالطلوع والنزول

فقلة المبالاة لا قيمة لها إن لم تأت بعد مبالاة ، لأنها تكون يومئذ مرضاً أو قصوراً لا يغبط عليه . ولا بد إذن من مبالاة ولو قصيرة الأمد قبل أن تصبح قلة المبالاة تجربة نفسية ورياضة خلقية . وليس شرطاً مع هذا أن تكون تلك التجربة مما يحمد على كل حال ، وأن تكون تلك الرياضة مما يقتدى به كل إنسان

وغاية ما يرجى من انتفاع بتجارب من مضى أن نعيد تجربتها في وقت أقصر وعلى ثقة أوضح وأبصر . . . ولم ؟ ليتسع العمر لتجارب أكثر مما جربه الأولون ، لا لينقص نصيبه من التجربة اكتفاء بما جربوه

فتكرر الأجيال عبث إذا كان معناه أن جيلاً واحداً يعالج مشكلات الحياة ثم تعفى بقية الأجيال من علاجها . وتكرر الأجيال معقول إذا كان لكل جيل نصيبه من عبء الحياة وعليه مزيد جديد .

عباس محمود العقاد

القرآن والمسلمون

للأســتاذ الشيخ محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

إن خير حديث يتحدث به المسلمون بعضهم إلى بعض في هـذا الشهر الذي يذكرون فيه ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، هو ما يتصل بهذه المعجزة الخالدة التي أظهرها الله على يد هـذا النبي الكريم ، وبها حول العالم من سبل الشر والشقاء ، إلى سبل الخير والسعادة

وإن الحديث فيما يتصل بالقرآن الكريم لكثير النواحي . متشعب الأطراف . وقد رأينا أن يكون حديثنا في ناحية من هـذه النواحي هي علاقة المسلمين بالقرآن في عصورهم المختلفة ، وذلك ينتظم :

(١) القرآن والمسلمون في العهد الأول

(٢) القرآن والمسلمون في العصور التالية

(٣) القرآن والمسلمون في العهد الأخير

وقد رأينا تمهيداً لعرض الموضوع الذي نحاوله أن نقدم بين يديه ما يجلي لنا الغاية التي من أجلها نزل القرآن ، والفكرة التي يعمل لاقرارها في هذا العالم .

مقدمة

ا — كان الناس قبل القرآن في عقائدهم وأعمالهم على طرفين متناقضين : إما الأفراط أو التفريط ؛ وكلا الفريقين بعيد عن جادة الاعتدال . فبينما كنت ترى فريقاً عكف على المادية البحتة ، وشغف بها حتى جرت منه مجرى الدم في العروق ، وحرص على تنمية عواملها ، وتوطيد وسائلها ، وحرم نفسه تذوق اللذة الروحية ، إذا بك ترى فريقاً آخر قد نزع إلى الطرف المقابل ، ونسي حظه المقدر له في المادة بمقتضى خلقه وتكوينه ، فتحكمت فيه تقاليد الروح المحضة ، وأعرض عن الدنيا وما فيها ، وحرم نفسه متاعها ومباهجها

هذان هما الفريقان المتقابلان يستظل أولهما بظل اليهودية أو الوثنية ، ويستظل الآخر بظل المسيحية أو الصابئية أو نحو ذلك

ب — إن اقتسام هاتين الفكرتين للعالم على هذا النحو ، أو طغيان إحداهما على الأخرى ، من شأنه أن يحول بين الناس وبين القيام بواجبهم الذي من أجله خلقوا ، وجعلهم الله خلفاءه في أرضه : ذلك الواجب هو عمارة الكون والانتفاع بما خلق الله فيه من شيء ، والسمو بالعقل الإنساني على وجه يسعد به الناس في معاشهم ومعادهم ؛ ذلك الواجب هو الذي تضمنته الآية الكريمة في بيان حكمة هذا الخلق

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً . ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم . وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم مالا تعلمون ! »

ج — جاء الإسلام وهاتان الفكرتان تقتسمان العالم وتسيطران عليه . فحدد غاية الإنسان في الحياة وأرشده إلى مقوماتها الصحيحة ، وأهاب به إلى الفكرتين جميعاً ، وحثه على قصد الجادة والاعتدال ، وطلب إليه أن يأخذ في كل ناحية بقسط ملائم حتى تتحقق له السعادة على أكمل وجوهها . . .

أوسع له في ضروب القول مستدلاً على عقم المادية البحتة بأنواع الاستدلال ، وأخذ يصورها أمامه بأبشع الصور ، واتجه به إلى كثير من مواطن الحياة ، وحثه على استكمال حاجته منها ؛ ونعى على الروحية المحضة ، وجعلها من الأساليب التي تنافر الغاية من خلقه لعمارة الكون وخلافته عن رب العالمين

إقرأوا — إن شئتم — قوله تعالى في التنفير من المادية البحتة :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون؟ »

واقرأوا قوله تعالى في الحث على ترك الروحية المحضة :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها »

واقرأوا قوله تعالى في الحث على الأخذ بالنصيبين :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض »

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

جاء القرآن لهذا الغرض : مهمته أن يبلغ العقل البشرى رشده ، وأن ينتفع الناس بالصالح من المادة والمفيد من الروح

وقد اتخذ هذا الاعتدال نهجاً له فى إصلاح العقائد وتهذيب الأخلاق وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعى ، وصرح فى كثير من آياته بأنه يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وبهديهم إلى الطريق الأقوم ، وينذرهم سوء العاقبة ، ويبشرهم بالحياة الطيبة إذا هم تمسكوا بعبادئه وعملوا بإرشاداته ، وحرصوا على تنفيذ أحكامه

واقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون بعضه مفصلاً وبعضه مجملاً : يفصل ما لا تختلف فيه أغراض الإصلاح ، ولا تتغير فيه وجوهه بتغير الأزمان والأمكنة ، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات ، ويجمل ما تختلف أحكامه بحسب ما تقتضيه أحوال الزمن وتطورات الحياة واختلاف الأمكنة ، تاركا للعلماء تطبيق ذلك على الحوادث والواقعات الجزئية التى يجود بها الزمن

وذلك كله عملاً على سعادة البشر ، وإطلاقاً لسراح العقل ، وحثاً لأهل البصيرة على التمتع بلذات النظر والتنافس فى مجال الاجتهاد

عالج القرآن بذلك العلل النفسية والأمراض الخلقية ، وحل المشاكل الاجتماعية ، ورسم طريق الحياة الطيبة الصالحة فكان كما وصف نفسه :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »

« تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

القرآن والمسلمون فى العهد الأول :

على هذا الأساس آمن الأوائل من المسلمين بالقرآن ، فوضعوه بالمحل الأول من مكانة التقديس والعناية ، وسلموا إليه نفوسهم ، وتركوه يتصرف فيها بالتزكية والتطهير والتعليم والحكم والسياسة وسائر شئونهم ، العامة والخاصة ، الداخلية والخارجية ، حتى اتسعت أمامهم مسالك الحياة وانفسحت رقعة المملكة الإسلامية طولاً وعرضاً ، فما احتاجوا وهم يقلبون القرآن بين أيديهم ، ويفهمون آياته الواضحة ، وإشاراته الواردة على سَنن اللغة العربية القويم ، إلى قانون سياسى أو مدنى ، ولا إلى نظريات الآداب والأخلاق ، بل كانوا كلما تقدمت بهم الحياة ونظروا فى القرآن ، رأوا فيه حاجتهم ، واستفادوا منه أكبر ما تطمح إليه النفوس الوثابة المتطلعة إلى عز الدنيا ومجد الحياة !

حصروا نظرهم إلى القرآن فى الفهم والاتعاظ وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهى ، وأخذوا ينشرون ما يفيضه عليهم من أصول التشريع وقوانين الأخلاق والاجتماع على سائر المسلمين فى جميع بقاع الأرض شرقاً وغرباً ، فوحد القرآن بينهم حول الغاية التى لأجلها نزل . وما كانوا ليتجهوا أو ليحاولوا أن يخرجوا بشىء من آى القرآن كلا أو بعضاً عن هذا النهج : نهج العمل ، وتهذيب الخلق ، وإصلاح العقيدة

ما فكروا يوماً فى أن القرآن يبرىء لهم مريضاً ، أو يرد عنهم غائلة عدو ، أو يكشف لهم عن معضلة كونية إلا عن طريق ما أمر به من اتخاذ الأسباب ، وقدح زناد العقل ، والسلوك فى الحياة على ما تقتضيه سنة الحياة .

بهذا سار المسلمون الأولون ، وعظم سلطانهم ، وتربت مهابتهم فى قلوب الأمم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وبهذا حافظوا على وحدتهم فلم يتفرقوا فى العقائد ، ولم تشتتهم الأهواء والمذاهب ، وسلم لهم دين الله وكتابه خالصين متينين لم تلعب بهما الشهوات ، ولم يتطرق إليهما عوامل الأحداث والابتداع

القرآن والمسلمون فى العهود التالية

مضى ذلك العهد ، وقد اتسعت بفضل القرآن وتأثيره فى النفوس رقعة الإسلام ، وامتد سلطانه ، ودخلته حضارات وثقافات وعناصر مختلفة وأمم متباينة ، فبدأت عوامل التفكك تتسرب إلى الوحدة الإسلامية

حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبى ، والتشاحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب وحاملو رايات الفرق المختلفة يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، وامتدت أيديهم إلى القرآن ، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه إلى وجهات تتفق وما يريدون

وبذلك تعددت وجهات النظر في القرآن ، واختلفت مسالك الناس في فهمه وتفسيره ، وظهرت في أثناء ذلك ظاهرة خطيرة هي تفسير القرآن بالروايات الغريبة والإسرائيليات الموضوعة التي تلقفها الرواة من أهل الكتاب وجعلوها بياناً لمجمل القرآن وتفصيلاً لآياته ، ولم يروا بأساً من أن يضيفوا إليه خصائص موهومة في شفاء الأمراض وقضاء الحاجات وتفريج الكربات

ومنهم من عني بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة ، وبذلك وُجدت محكات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم ويستبيحون في سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن ، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ، ومن يخرجها عن بيانها الواضح وغرضها المسوقة له لكيلا تصلح دليلاً لمذهب فلان ، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكماً

كانت هذه ثورة ، وثورة غير منظمة ، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية . وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة في بطون الكتب ، وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعاً من القداسة التي يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون في عصور الضعف الفكري والانحلال السياسي كقضايا مسلمة وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها

قيد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامي فيما يختص بفهم القرآن ، والانتفاع بهداية القرآن ، لجمد الناس على تقليد هذه الكتب ، واتخذوها حكماً بينهم ، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئاً منها ، وقالوا : هذا شيء درج عليه السابقون المتقدمون ، ودونوه في كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ؛ وما كان لنا ، ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظراً في فهم أساليب القرآن وتخريج الأحكام ، أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة ، ولا أن نخالفه في قليل ولا كثير

وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم ، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين

وكما أفسدت عليهم هذه النزعة حياتهم الفكرية ، وصورت لهم دينهم بهذه الصورة المشوهة ، جنت كذلك على حياتهم العملية فتركتهم يزهدون في الدنيا ، ويكبلون الناس بما يفهمونه من معنى القضاء والقدر ، ويكلونهم إلى التوكل الجاف الذي لا يعتمد الأسباب ؛ وبذلك افتقر المسلمون والناس من حولهم أغنياء ، وضعفوا والناس من دونهم أقوياء ، وحيل بينهم وبين الأخذ بالأسباب على حين سخر الناس السماء والأرض والجو والماء !

« البقية في العدد القادم »

محمود شلتوت

المسألة الاجتماعية في مصر والشرق

بيني وبين الأستاذين
فكري أباظة وتوفيق الحكيم
للدكتور زكي مبارك

كنت توهمت أن طول عهدي بالصحافة السياسية والأدبية جعلني أعرف الناس بأساليب الجدال ، وأقدرهم على الفهم لمذاهب الصحفيين في إقرار الحقائق وإزهاق الأباطيل

وكنت توهمت أيضاً أن الصحافة تَهدي الجمهور ، وإن كان الظاهر يلوّح بأنها تستهديه ، فقد كان مفهوماً عندي وعند أكثر الناس أن الصحافة قوة نورانية تبدّد الظلمات ، وتأخذ بيد المجتمع إلى درجات التقدم والارتقاء

كنتُ وكنت ، إلى أن تلقيت عن الأستاذ فكري أباظة درساً لن أنساه ، فما هو ذلك الدرس ؟

كان الأستاذ توفيق الحكيم نشر مقالاً في مجلة المصور عن الإصلاح الاجتماعي ، وقد صرّح في ذلك المقال بأن المجتمع المصري سيظل في انحطاط ما دام في مصر جماعة من الأغنياء يستأثرون بمصادر الخيرات ؛ ثم قرّر أنه لا نجاة لمصر إلا يوم تصبح « المسألة الاجتماعية » في قوة « المسألة السياسية » ، فتسبب إسقاط الوزارات ، وتقدّم وتؤخر في مراكز الأحزاب

وقد رأيت مقال الأستاذ توفيق الحكيم ضرباً من الحديث المعاد ؛ فقد مضت أجيال والناس يتحدثون عن « اليوم الموعود » : اليوم الذي توزّع فيه أموال الأغنياء على الفقراء . وانتظارُنا لذلك اليوم سيطول ، فمن الخير أن نفكر في إسعاد الفقراء بطريقة عملية ، فندرس أسباب الفقر لنقتلع جذوره من الأساس . ثم رأيت أيضاً أن الكلام عن « المسألة الاجتماعية » ليس إلا « بضاعة أجنبية » فهو منقول عن جماعة من الكتّاب الأوربيين والأمريكان ، وما يقال في الغرب لا يصلُح دائماً لأهل الشرق

وسارعتُ فأرسلت مقالاً إلى المصور في تقرير هذه المعاني . وفي العدد الذي تلا ظهور المقال رأيت الأستاذ فكري أباظة يتبرأ مني ، ويعلن أنه تلقى مئات الرسائل في تفنيد ما رأيت ، وأنه سيتولى الرد عليّ في العدد المقبل ؛ فكان رده تحريضاً للجمهور على الكاتب الذي توهّم أن الأستاذ فكري أباظه رجلٌ يحترم حرية الرأي ؛ فرددت عليه بمقال أعلنت فيه أن « الفقر مرض ، ولكل مرض أسباب » ، فعاد فقرّر أن الرسائل التي وردت في الرد عليّ بلغت الألف عداً . ثم وجّه إليّ كلمات لا يليق صدورها عن زميل كنت أراه غاية الغايات في رعاية أقدار الزملاء

واليوم ، ماذا أريد أن أصنع ؟ ؟

أريد أن أحرر الأستاذ فكري أباظة من الاستعباد للرسائل التي تُمدّ بالمئات أو بالألوف ، فقد يخاف على « المصور » من غضبات القراء ، وأنا أحب أن تدوم عليه وعلى مجلة « المصور » نعمة العافية ، فهو صديق وهي صديق ، وإن لقيت منه ومنها ما لقيت ! !

أريد أن أختبر قدرة الأستاذ فكري أباظة على الأبحاث التي تحتاج إلى تعمّق واستقصاء ؛ فقد رأيته يتنقّل تنقّل الطير من فَنَن إلى أفنان ، ورأيته لا يصبر على « الطعام الواحد » غير أوقات تُمدّ بالآحاد ، وهو يدرك مَرَدّ هذه الإشارة في الأدب والتاريخ

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقد خرج بالصمت عن لا ونعم ، ولكني سأعرف كيف أسوقه برفق أو بعنف إلى شرح مذهبه في الإصلاح الاجتماعي ، إن كان في اعتناق ذلك المذهب من المؤمنين ؛ فأنا أخشى عليه عواقب التودد إلى القراء بأساليب يغلب عليها الترفق المصنوع

وأنا لا أخاف على « الرسالة » كما خاف الأستاذ فكري أباظة على « المصور » ، فالقراء لن ينصرفوا أبداً عن مجلة تواجههم بالصدق في تشريح الآراء والأهواء[1] . ولو كنت أعرف أن مجلة المصور ستخذلني لطويت عنها رأيي ، وتركتها تتودد إلى القراء ، كما تشاء !

أخذ الأستاذ فكري أباظة بيديْ ويعيد في التوجع لمصاير الصناع والعمال والفلاحين ، كأنه يتوهم أن التوجع شفاء من كل داء !

نحن لا نريد أن نقيم اللاطم والمناحات على ما صرنا إليه ، وإنما نريد أن ندرس جميع الظواهر الاجتماعية بصدق وإخلاص ، وإن غضب علينا بعض من لا يفقهون

(١) رأي الرسالة في الفقر والفقراء معروف

فهل يخرج الأستاذ فكرى أباظة على مذهبه المألوف فى تقييد الخواطر اليومية ليلقانى على صفحات الرسالة وقد استعد لنضال شريف سيعود على المجتمع بالنفع الجزيل ؟

لقد نهانى الناصحون عن هذا الموضوع الشائك ، وقالوا إن فى مصر تياراً من الحقد على الأغنياء ، وإن من العقل أن أساير ذلك التيار ، كما يصنع الأستاذ فكرى أباظة والأستاذ توفيق الحكيم

وأقول إنى أقاوم ذلك التيار لمنفعة وطنى ، فالوطن الغالى يناشد أبناءه جميعاً أن يعيشوا فى تعاون وتساند ، وهو يدعو الفقراء إلى الفرح بسعادة الأغنياء ، كما يدعو الأغنياء إلى البر بالفقراء . ولن يعطف الله على الفقير إلا يوم يفرح بحلول النعمة على جاره المسعود ، والفقير الذى يفرح بفرح جاره الغنى هو الصورة الصحيحة للأدب الذى دعانا إليه الأنبياء

أما بعد فما هو أصل الخلاف ؟ يقول الأستاذ فكرى أباظة : إنى حملت على الفلاحين والفقراء . لا ، يا صديقى ، وإنما كان رأيى أن الفقر الذى يعانيه بعض الفلاحين والعمال والصناع له أسباب ، لأن الفقر فى الجيب كالعلة فى الجسم ، ولكل نتيجة مقدمات

فما وجه الخطأ فى هذا القول ؟ وهل من الصحيح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع منزهون عن الأغلاط ؟

إن كان ذلك فكيف يصيبهم الفقر وهو لا يصيب غير من حُرموا قوة الأخلاق الاجتماعية والماشية ؟

وكيف اتفق لجميع المصلحين أن يضعوا آداباً لطلب الرزق ، وهى آداب موجهة إلى الفقراء ؟

وكيف يحرّم علينا أن ندعو فقراءنا إلى التخلق بالأخلاق الاجتماعية والماشية ، وهى دعوة تلقيناها عن أسلافنا الأمجاد ؟

وأهجم على الأستاذ فكرى أباظه فأوجه إليه هذا السؤال : إذا صح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع على جانب عظيم من الأخلاق الاجتماعية والماشية فكيف جاز أن يعيشوا فقراء ونحن نعرف أن السلامة من الآفات الأخلاقية تضمن السلامة من آفات البؤس ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً آخر فأقول :

إذا صح أن جميع الفقراء فى غاية من الأمانة والصدق فكيف جاز أن يقوم بينهم وبين الأغنياء حجاز سميك لا تنفذ منه بوارق التعاون إلا فى أندر الأحايين ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً ثالثاً فأقول :

إذا صح أن الناس جميعاً بخير من الوجهة الأخلاقية فلأىّ غرض تنشأ الجرائد والمجلات ؟ ولأية غاية تقام حدود الشرائع والقوانين ؟

إن كان الأستاذ فكرى أباظة راضياً عن أحوال الصناع والعمال والفلاحين ففى الدنيا أقوام يرون غير الذى يراه ، ومن حق أولئك الأقوام أن يعلنوا آراءهم بلا تخوف ولا تهيب ، لينقلوا المجتمع من حال إلى أحوال ، وليخطوا فى كتاب الإصلاح الاجتماعى صفحة جديدة يحفظها التاريخ

ثم ماذا ؟ ثم يسألنى الأستاذ فكرى أباظة عن أهلى فى الريف ، وهو يؤكد أن أقدامهم الممزقة وأياديهم الخشنة وصدورهم المحروقة ووجوههم الملوحة تشهد بأنهم أشقى سكان العالم وأعنفهم عملاً وكداً وكدحاً

وأقول إن أهلى ليسوا كذلك ، مع الأسف الموجع ؛ فلو كنت أعرف أن لأهلى فى الريف أقداماً ممزقة ، ووجوهاً ملوحة ، لطابت نفسى ، وأيقنت أن الريف لا يزال بخير ، وإنما أعرف أن أهلى وأهلك تسامعوا بأن القاهرة نشأ فيها رجال يبكون أو يتباكون لشقاء الفلاح ، ويزعمون أن الفلاح الأوربى أو الأمريكى يعيش عيش السعداء ، فلا يعانى صحبة الفأس والمحراث إلا وفى يده جريدة يطالع فيها أخبار الصباح أو أخبار المساء ! !

ليت أهلى فى الريف حفظوا عهد جدّى ، فقد كان جدى رحمه الله يحدّث أبناءه بأن الحقل يفرح بصاحبه حين يراه ، وهم اليوم لا يرون حقولهم إلا فى الحين بعد الحين ، وأكثرهم يخجل من أن يسحب بقرة أو يركب جملاً ! وكيف يسحبون البقرات أو يركبون الجمال وهم من أبناء الجيل الجديد ، الجيل الذى ينشئ فى سنتريس أكثر من سبع قهوات مع أن أهلها لا يجاوزون عشرة آلاف ، ومع أن الآباء والأجداد فى سنتريس لم يكونوا يشربون غير الماء القراح

أريد أن أرى بين أهلى رجلاً ممزق القدمين من آثار الكدح الموصول لأتقرب إلى الله بالثناء عليه ، ولأنشر عنه مقالاً فى مجلة مصرية أو شامية أو عراقية

أنا لم أفكر فى « إحداث ضجة » تقع كارثتها فوق رأسى ، كما يهددنى الأستاذ فكرى أباظة ، وإنما أفكر فى مصاير قوى ،

وأنا بشهادة خصومي أصدق الناس في الوطنية ، ولله الحمد على هذا الميراث النفيس

وأهجم على الأستاذ فكري أباظة مرة رابعة فأوجه إليه هذا السؤال :

هل تعرف ، أيها السيد ، كيف حُرِم أبناء الريف نعمة الشاعرية ؟

ولكن ما هذه الشاعرية ؟

إليك أسوق الجواب :

كان جميع أبناء الريف يتعلقون بمزارعهم إلى حد الفتون ، فكان الرجل منهم يراعي مزروعاته بشغف وشوق ، ويكاد يعرف كيف تطول الورقة الخضراء من ساعة إلى ساعة ، بل من دقيقة إلى دقيقة ، بل من لمحة إلى لمحة ؛ وكان الرجل منهم يعطف على مواشيه كما يعطف على أبنائه الأعزاء ؛ وكان الفلاح يعرف ملامح كل شجرة ، ويأنس بكل نبتة ، ويكاد ينظم قصيدة رثاء حين يرى سنبلة قصمتها الرياح

فأين أهلونا في الريف من هذه المعاني بعد أن سمعوا بقصة التمدن الحديث ؟

أين أهل الريف من هذه المعاني ، وما نشأ منهم ناشئ إلا وهو يرجو الرحيل إلى القاهرة ، ليجد وظيفة تغنيه عن الأنس بمزارع القطن والقمح والفول ؟

إن أسلافنا القدماء عبدوا مصادر الخيرات في بلادهم إلى الحد الذي سمح بأن يروا معنى الألوهية في البقرة الحلوب ، وإلى الحد الذي سمح بأن يعتقدوا أن النيل إله معبود

فأين نحن من أولئك الأسلاف ؟ وأين فينا من يتشرف بأنه فلاح وابن فلاح ؟

لقد توهم الأستاذ فكري أباظة أنني من « سادة الصالونات الأرستقراطية التي تعيش في دنيا الجاتو والجيلاتين والجامبون والمارون جلاسيه » . فليعرف أن هذه الألفاظ تحتاج إلى شرح يقرّبها إلى ذهني بعض التقريب ، لأن بيتي لا يعرف هذه الأصناف ، ولأن من يتفضلون بدعوتي إلى بعض الولائم يطوونها عني ، ولأني نسيتها نسياناً تاماً بعد فراق باريس ، إن كنت ذقت في باريس غير إقذاء العينين تحت ضوء السراج

ما ذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد القول بأن دنيا الناس في مصر قد أصيبت بالانحراف وإلا فكيف جاز أن تكون دعوتي إلى إصلاح أخلاق الفقراء كارثة لا تقع إلا فوق رأسي ؟ !

وكيف يجوز أن يكون الأستاذ فكري أباظة من خصومي ، وقد اكتوت يداه بالانحراف الاجتماعي كما اكتوت يداي ؟

بلادنا مهددة بالشقاء ، بسبب سوء الفهم لعناصر النظام الاجتماعي ، فما الذي يمنع من أن نتعاون على الإصلاح المنشود ؟

ومتى ندرك أن تمزيق أقدام الفلاحين هو شارة من شارات التشريف ، وليس باباً من أبواب الرثاء ؟

من حق الأستاذ فكري أباظة أن يتوجع لمصاير الفقراء من العمال والصناع والفلاحين ، أما أنا فلن أتوجع لمصاير أولئك ولا هؤلاء ، لأني أومن بأن الله خلق منافع الوجود لجميع الناس ثم دعاهم إلى التسابق بقوة العزيمة والأمانة والصدق والإخلاص فربح من ربح وخسر من خسر ، كما كان يعبر أستاذنا الشيخ مصطفى الطماوي

الله وحده هو الذي يعلم سريرتي في إثارة هذه المشكلة الاجتماعية ، ومنه وحده أستمد العون على من يعادونني ظالمين آثمين . وإلى اللقاء بعد أن أسمع حجج المناظر الفضال

زكي مبارك

فى العقـــــد

لأســـتاذ جليل

صاحب البيت الثانى : (ولرب مأخوذ بذنب عشيره) هو غير صاحب البيت الأول : (جانيك من يجنى عليك ...) وإذا كان قد قاله كما روى صاحب (العقـد) والشريشى شارح (المقامات) فقد سار مع العروض التامة . ويظهر أن أديباً استطال[1] الصـدر فاستبدل به : (ولرب مأخوذ بلا قرف) ـ واقترف فى هذا المعنى أكثر ـ نخرج بذلك من (العروض[2] التامة والضرب الأحذ المضمر) إلى (العروض الحذاء المضمرة والضرب الأحذ المضمر) ولم يذكروا هذه العروض ، ولم ترد فى أشعارهم ، وإذا جاءت فإنما تجى فى مطالع القصائد مصرّعة[3] كما قال صاحب (العقد) فى مقطوعة (عروضية) :

عينىّ ، كيف غررتما قلبى   وأبحتماه لوعـة الحب ؟ !
يا نظرة ، أذكت على كبدى   ناراً قضيت بحرها نحبى !
خلوا جوى قلبى أكابده   حسبى مكابدة الجوى حسبى !
عينى جنت من شؤم نظرتها   ما لا دواء له على قلبى !
جانيك من يجنى عليك وقد   تعدى الصحاح مبارك الجرب[4]

ولا تصريع فى بيتينا

وقد يقال : إن أديباً آخر فطن لذلك الخروج فى (بلا قرف) فبدل به (بلا ترة) فأقبلت النغمات متوائمة[5] وإن لم يبن البيت هنا إبانته فى تينك الروايتين

وبعد فإن رواة البيت : (جانيك ...) فى كتب اللغة

(١) استقصره عده قصيراً ـ كما فى الصحاح ـ واستطاله عده طويلا وإن لم يرد ـ كما قالوا ـ . فى التاج : استعمل البيضاوى كالزمخشرى استطال متعديا ، وبنوا منه مستطالا ، ووقع في المفصل ، وقد استعمله السعد فى المطول

(٢) عروض الشعر أنثى وربما ذكرت (اللسان)

(٣) ربما صرعوا فى غير المطلع .

(٤) يختم صاحب العقـــد كل مقطوعة عروضية ببيت قديم ، وقد ختمت هذه بالذى نحن فى مشكلته . . .

(٥) الأساس : غناء متوائم : متناسب ، قال ابن أحمد :

أرى ناقتى حنت بليل وشاقها   غناء كنوح الأعجم المتوائم

والأدب قد غلطوا فى روايتـه فالبيت مرفوع لا مخفوض ، ولا إقواء فيه ، وقد قصد صاحب اللسان (وتبعه صاحب التاج) جبره بهذه الرواية :

جانيك من يجنى عليك وقد   تعدى الصحاح فتجرب الجرب

فما انجبر ، و (مَبارك) فى البيت ليست مرفوعة وإنمـا هى منصوبة

وقد شاء الله أن يكون الفضل فى إعلان الرواية الصحيحة المحققة لهذا البيت لمجلة (الرسالة) فى هذا الزمان ؛ والإفضال على الأدب العربى فى كل جزء ، فى كل أسبوع ، هو هِجّيراها ، هو دأبها ، وحسبها وحسبنا تلك (الأولى) لربها فيه

البيت لذؤيب بن كعب فى مقطوعة (ســتة أبيات) قالها فى يوم تِيَـاس[6] ، وهو من أيام العرب ، وقد ذكره صاحب (العقد) مختصراً ، وأورد ثلاثة أبيات من المقطوعة . وروى الخبر أتم والمقطوعة كاملة أبو عبيدة فى تعاليق (النقائض) ، وستظهر تعليقة البيت حقيقة الرواية . وقد رأيت أن أنقل الخبر والأبيات والتعليقة لندور تلك الطبعة الغربية فى الشرق . ومحقق (النقائض) وناشرها هو العربانى الأستاذ (ا . ا . بيفن)

قال أبو عبيدة : « كانت قبائل بنى سعد بن زيد بن مناة ، وقبائل بنى عمرو بن تميم التقت بتيَـاس ، فقطع غيلان بن مالك ابن عمر بن تميم رجل الحارث بن كعب بن سـعد بن زيدِ مناةَ ، فسمى الأعرج ، فطلبوا القصاص ، فأقسم غيلان ألا يَعقلها ولا يُقصها حتى تحشى عيناه تراباً ، وقال :

لا نعقل الرجل ولا نديها   حتى ترى داهيـة تنسيها

فالتقوا فاقتتلوا ، فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قتلوه ، ورئيس عمرو[7] كعب بن عمرو ، ولواؤه مع ابنه ذؤيب ، فجعل غيلان يدخل البوغاء[8] فى عينيه ويقول : محلل غيل[9] ، حتى

(٦) اللسان : تياس موضع بالبادية كانت به حرب حين قطعت رجل الحارث بن كعب فسمى الأعرج

(٧) يعنى بنى عمرو

(٨) البوغاز : التراب عامة ، التراب الناعم ، وقيل هي التربة الرخوة التى كأنها ذريرة (اللسان)

(٩) مرخم غيلان ، ومن أبيات الـكتاب فى ترخيم مروان والبيت للفرزدق :

يا مرو ، إن مطيتى محبوسة   ترجو الحباء وربها لم ييأس

مات . فقال ذؤيب بن كعب لأبيه[١٠] كعب :

يا كعب ، إن أخاك منحمق   إن لم تكن بك مِرة كعب[١١]
أتجود بالدم ذى المضنة فى السجلّ ، وتلوى الناب والسقب
فالآن إذ أخذت مآخذها   وتباعد الأنساب والقرْب[١٢]
أنشأت تطلب خُطة غبنًا   وتركتها ومسدُّها رأب
جانيك من يجنى عليك وقد   تعدى الصحاحَ مباركَ الجرب
والحرب قد تضطر جانيها   إلى المضيق ودونها الرحب[١٣]

قال أبو عبيدة : أنشدنى داود أحد بنى ذؤيب : (الصحاحَ مباركُ الجرب) فرفعوا مبارك ، وجروا الجرب ، وذلك أقواء

قال أبو الخطاب : إن عامة أهل البدو ليس تفهم ما يريد الشاعر ، ولا يحسنون تفسيره ، وإنما أتى إقواء هذا من قلة فهم الذين رووه ، وإنما عنى الشاعر (وقد يعدى الأجربُ الصحيحَ مبركا) فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً لم يحسنوا تلخيصه ، ووجدوا مبارك لا ينصرف ، فأظلم عليهم المعنى ، وإنما أراد :

وقد تعدي الصحاحَ مباركَ الجربُ[١٤] »

قلت : (الصحاح مبارك) التى لم يفهمها البدو فى ذلك الوقت ... هى مثل الحسن وجها فى قصة (الصفة المشبهة) ذات الستة والثلاثين وجهاً ... !

ومن أبيات الكتاب :

فما قومى بثعلبة بن سعد   ولا بفزارة الشُّعرى رقابا[١٥]

قال الشنتمرى : « نصب الرقاب بالشعرى على حد قولك الحسن وجهاً ، ويجوز فيه (الشُّعرِ الرقابا) على ما أنشده بعده وهو كقولك : الحسن الوجه بالنصب على الشبه بالمفعول به . وصف فزارة بالنمم وهو كثرة شعر القفا ومقدم الرأس ، لأنه عندهم مما يتشاءم به ويذم ، والمحمود عندهم النزَع ، وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس ، والشعرى مؤنث الأشعر ، وهو منه كالكبرى من الأكبر ، وأنثه لتأنيث القبيلة ، والشعر جمع أشعر ، فجمع لأنه جعل كل واحد منها أشعر ، فجمع على المعنى »

وأختم هذه الأسطر بالشكر للأستاذ المفضال عبد السميع صبرى

***

(١٠) فى طبعات العقد : لابنه ، وهو غلط

(١١) انحمق الرجل : ضعف من الأمر ، وفى اللسان : فاشدد إزار أخيك يا كعب

(١٢) فى طبعة (النقائض) ضبطت الراء بالفتح ، والقرب بالسكون مثل القرابة كما فى الصحاح واللسان وغيرهما

(١٣) فى طبعات العقد : قد يضطر جانبها نحو المضيق ودونه الرحب .

(١٤) ضبطت الباء فى (النقائض) بالكسر بعد شرح أبى الخطاب كله ... والخبر والشعر فى النقائض (٢) ص (١٠٢٥)

(١٥) الحارث بن ظالم . ولرؤبة وهو من أبيات الكتاب :

الحزن بابا والعقور كلبا

والحزن خلاف السهل

على ذكر المولد النبوى

للدكتور عبد الوهاب عزام

الذكَر العظيمة فى تاريخ الأمم نجوم يُهتدى بها فى ظلمات الأيام، وأعلام يستبين بها الطريق فى ضلالات الزمان، ودعوات إلى الحق والخير تدوّى على مر السنين. والزمان بالناس دائر لا يفتر، تمتورهم أحداثه، وتتداولهم غيره، فمن لم يعتصم بسبب من الحق، ويستمسك بعروة من العمل الصالح، ضلّ وانبهمت عليه السبل، والتبس عليه الحق والباطل، والهدى والضلال. ومن لم يجعل له قدوة من سير العظماء تردّد وتحيّر، والزمان لا ينتظر المترددين الحيارى، أو ضل وهلك، والدهر لا يشفق على الضُّلاّل والهلكى.

وإن لنا معشر المسلمين من سيرة رسولنا خاتم النبيين نجوماً نيّرات، وأعلاماً واضحات، وأسّى تهدى إلى الخير والبر، والتى هى أقوم من أعمال الدين والدنيا. إن لنا من سيرة الرسول الكريم هدى فى كل صغيرة وكبيرة من أعمال الفرد والجماعة.

فقد حفظ لنا التاريخ سيرته فى بيته ومسجده، وفى سياسة الجماعات، وتربية الأمم، وقيادة الجيوش، وفى الإصلاح بين المتعادين، والقضاء بين المتخاصمين، وفى السفر والحضر، والشدة والرخاء، والحرب والسلم، والغضب والرضا، فما تلقانا حادثة من حوادث الزمان، أو عمل من أعمال الحياة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، إلا وجدنا فى سيرة سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد صلوات الله عليه وسلامه مثلاً عالياً، وأسوة حسنة، ورأياً هادياً، وقضاء فصلاً، يهدينا إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. كل فرد منا يجد فى سيرة محمد وهديه شفاء دائه، والتحرر من أهوائه، وإصلاح خلقه؛ وكل فرد منا يجد فى سيرة نبيه الجهاد فى الحياة والصبر على لأوائها، والطموح إلى معاليها، والاستكبار عن دناياها، والإباء على كل ضيم والنفور من كل مذلة

وكل أمة من أمم المسلمين تدوى فيها ليل نهار الدعوة المحمدية تدعوها إلى أن تقوم فى أرض الله على عباد الله بقانون الله «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

وكل أمة على هذه الأرض تجد فى هُدى محمد ما يَطِبّ لدائها، ويقيم من عوجها. وهل أودى بالجماعات إلا عصبيات باطلة، وأهواء جامحة، وشهوات مسلّطة، واستكبار على الحق، ونفور من العدل؟ هل كبّ الناس فى جهنم إلا ما استعر فى قلوبهم من الضغينة، وثار فى رءوسهم من الهوى؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد رسولاً جاء بالشرع الجامع، والأخوة العامة، والعدل الشامل؟ هل يعرف التاريخ كمحمد هادياً ألّف بين منازع النفس على قانون من العفة والعدل، وألّف بين الإنسان والإنسان على شريعة من المودة والأخوة، وألّف بين الأمة والأمة على منهاج من الحق والبر والعمل الصالح لخير الناس أجمعين؟ من رفع للناس لواء الأخوة لا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا يميز بين المشرق والمغرب؟: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». من دعا الناس جميعاً إلى التنافس فى الخير على اختلاف أديانهم ونحلهم وأنزل عليه: «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير». «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون»

أين أنتم من هذه الأخوة الجامعة يا ضُلال البشر؟ أين أنتم من دعوة الخير العامة يا دعاة الشر؟ أين أنتم من هذه الرحمة يا قساة القلوب؟ أين أنتم من هذا الصلاح يا فساد الشعوب؟

المسلمون أحق باللوم وأجدر بالتعنيف. فهم أهل هذا الدين

وأولى الناس بهديه، وهم هم خذلوه وهجروه، وحفظوا ظاهره وضيعوه. «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» فإن ترهم اليوم في فرقة وشقاق فبما ضيّعوا أخوّة الإسلام، وإن ترهم في مذلة وهوان فبما فرطوا في عزة الإسلام، وإن ترهم أتباعاً فقد علمهم الإسلام مشرعة السيادة فنبذوها، وأعطاهم أزمة القيادة فأضاعوها

أيها المسلمون، هذه ذكرى نبيكم، وميلاد تاريخكم، ومبدأ مجدكم، ومنشأ سعادتكم؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلاً لهذا الشرف. كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسمّوا أمة محمد. ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولعباً، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالاً، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر، فمن شاء أن ينتسب إلى محمد فهذه سنته، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقته

«يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا».

عبد الوهاب عزام

نظرة في مناظرة

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

قال بعض أصحاب الفكر والذوق للمعاني: إن الثقافة وعي أطراف صالحة من أثمار العقول، العلمية والفنية والأدبية، بها يلتفت المثقف إلى المبادىء والأسباب والقوانين والحقائق، ويرشد قومه إلى الأصلح لحالهم، والأنفع لترقيتهم، والأخلق بالإنسانية ...

ومناظرة الأستاذ العقاد بكلية الآداب – في أن «التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين» – هي مشاركة في بحث يمتّ إلى هذه الثقافة، إذ يرمي إلى إثارة الأذهان بالكشف عن الحقيقة في الخلاف بين الذاهبين إلى الأخذ عن الغرب وبين القائلين بالاقتصار على تراث الشرق، في سبيل نهضتنا؛ والحقيقة تتبيّن من مقابلة الشيء بضده، والموازنة بين الرأيين

ألقى على الأستاذ الفاضل عبء الدفاع عن الرأي الذي يصعب تأييده، وهو ابن بجدته، فجاء من الحجج بما يعسر الخروج منه. وكان كلامه، مع إيجازه المطابق لمقتضى المقام، أحسن ما يستطيع مثقف أن يقول في الموضوع. وفي الأدب العربي فصول في مثل إيثار الدمامة على الجمال، ونحو ذلك من الموضوعات التي لا يُجيد متناولها إلا بأوفر دراية ولباقة. لكن ذلك الكلام أذكرنا مناقضات نوردو(1) للآراء المألوفة في الاجتماعيات والنفسيات، ورسالة روسو(2) في حمد الجهل وتفضيله على العلم، وقد أجازه عليها مجمع ديجون(3) وكدنا نصدقها يوم قرأناها

استخدم المناظر منطقاً وبياناً في طريقة حصيفة هدته إليها ثقافته؛ وصاحب المنطق يستطيع أن يهدي به ويضل، وصاحب البيان ساحر، والثقافة قدرة إن شاء حائزها أحال الهدى ضلالا والضلال هدى، وهو لم يشأ، بل أراد فتق الأفكار والآراء بالمناقضة، وتعليم النظر الأدبي وذلاقة اللسان بالمثال البارع؛ وافتتح كلامه بقوله «كان من نصيبي» أن أؤيد هذا الرأي، فكأنه أراد أن ينبه في لطف على قبوله القيام بهذا التأييد كي تقوم المناظرة المفيدة؛ ولم يقل إن رأيه الشخصي هو الاكتفاء بالتراث الشرقي، وإن ساق الحجج الحاذقة في كفايته لنضج الحياة العقلية «عند الشرقيين»

***

قال: إن تراث الشرقيين هو «ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك، وروح العقائد الدينية

(1) Max Nordau : Paradoxes Sociologiques
Paradoxes Psychologiques

(2) Jean Jacques Rousseau ; Eloge de l'Ignorance

(3) Dijon

والحكمة النفسية والفكرية ، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين » .

أما العلوم الطبيعية التجريبية — يعنى العلوم الحديثة — والمعارف الرياضية ، فإنها خارجة عن التراث الشرقى والتراث الغربى معاً ، لأن « الحقيقة الطبيعية ثابتة فى جميع الجهات » ، يكتشفها « الإنسان باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » و « ما كشف منها فى الغرب تتمة لما سبقها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة ، فهى جزء من التراث الإنسانى » ؛ ولأن المعارف الرياضية « لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد ، المعزول عن خصائص الأوطان والأزمان »

* * *

لـ... تحقيق النظرى التراث الشرقى محصوراً فى هذه الحدود يظهر أن لبابه من ثمر أحوال النفس الواحدة فى البشر ، ومن أحكام العقل البشرى ونتائج تجارب الإنسان أينما كان ، ومن مقتضيات حاجاته فى الحياة الإنسانية : فالحب — مثلاً — فى الشرق هو الحب فى الغرب ، وكذلك البغض أو الشجاعة أو الجبن ، أو الفرح أو الحزن وسائر الوجدانيات ، وكل أولئك معزول فى ماهيته عن خصائص الأوطان والأزمان ؛ والإنسان « باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » ، قد عرف حاجته إلى الحث على الخير والنهى عن الشر ، وإلى إقامة النظام يتقى به آفات الفوضى ؛ وهـذه المعرفة ونتائجها من التراث الإنسانى . ومن الحكم والمواعظ العربية ما له نظائر فى تعاليم « كونفوشيوس »(٤) مثلاً ، أو فى أخلاقيات « فوفنارج »(٥) ؛ وفى الشرائع الرومانية ما يقارب بعض الشرع الإسلامى ؛ وفى الأدب اليونانى ما يماثل بعض الشعر العربى ، وفى الأدب العربى ما يشبه أمثالاً وحكايات هندية أو فارسية أو غيرها ؛ وذلك كله بأن الإنسانية دارجة فى تطور عام واحد مطرد ، على نحو ما بينه « ريكلو »(٦) و « ويلز »(٧) وإن لم تخل قبائلها وشعوبها من أنواع التفاوت فى المدنية

فهما كان على هذا التراث من مسحة وطنية ومن أثواب اللغة العربية ، فهو فى جوهره حلقة من سلسلة الأثمار العقلية والنفسية ، وهى سلسلة لا يقف تمددها « منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة » .

وتلك أمور إنسانية فى صميمها مهما كانت من قبيل ما يمتزج بحياة الشرقيين ، و « مصطبغ بصبغة الشرق ويجرى على سنته »

وليس هـذا بمانع من أن يقال : « إن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين ، فهى لاحقة بالتراث الشرقى أياً كان المصدر الذى جاءت منه أو حملت عنوانه » ، مثل الفلسفة اليونانية كما نقلتها الحياة العقلية الشرقية إلى الشرق العربى ؛ أو يقال : إن الحقيقة الطبيعية أو الرياضية منسوبة إلى العقل الناضج الذى كشفها — كنسبة قوانين الجذب العام إلى نيوتن(٨) — وإن كانت من « التراث الإنسانى »

* * *

أما العقل فإننا إذا اعتبرناه عضواً فى الإنسان ، كعينه وأذنه وسائر أعضائه الظاهرة والباطنة ، فهو ينضج كما تنضج بالبلوغ وتستحصف إلى الأربعين ، وهو يؤدى وظيفته كما تؤدى وظائفها ، وذلك منذ تميز الإنسان عن الحيوان فى ظلمات الماضى الأقصى ، بالنسبة إلى علمنا ، من اللانهاية الزمنية ، وإنما تميز بقدرة عقله على التصور والقياس والحكم . وعقل الإنسان « يعمل ويفكر ، ويبحث فيما يراه ويحيط به ، أياً كانت المسائل التى يتناولها بتفكيره وبحثه » منذ لم يكن له أى تراث فى أى

(٤) Confucius أو Koung-Fou-Tseu

(٥) Lue de Clapiers de Vauvenargues

(٦) Elisée Reclus

(٧) Vells

(٨) Isaac Newton

مكان ؛ ولولا ذلك لما سما إلى مستوى هذه المدنية . فالسلامة البدنية والصحة النفسية تكفيان وحدهما أبداً لتصحيح العقل الذى يصيب ويخطئ ، كما تخطئ العين وتصيب ؛ وبين الأفراد تفاوت فى حصافته الفطرية كتفاوت حدتها فيهم ، ولكنه عقل ناضج بهذا الاعتبار على كل حال .

كان العقل الناضج هذا النضج فى الإنسان « يعمل ويفكر فيما يراه ويحيط به » يوم كان صاحبه يعيش عيشة الوحوش المفترسة ، ويخشى ظواهر الطبيعة التى يجهل كل شىء من أسرارها ؛ ويوم أدرك ضرورة الحد من حريته الفردية الفوضوية ، ويوم وضع نُظُماً للعائلة فالقبيلة ، إلى آخر ما هنالك . وهذه مستويات تدرج الإنسان فى الرق إليها مع تدرج عقله الناضج فى نضجه التطورى بما غذاه ، فى كل وقت ، من تجاربه وتجارب سلفه وعمل عقولهم الإنسانية .

* * *

ويتضح مما تقدم بيانه أن العقل باعتباره عضواً من الإنسان له نضجان : نضج أول هو قدرته على تأدية وظيفته الفطرية ، وهو عام بين الأصحاء لا يُحسن تأديتها إلا به ؛ ونضج ثان هو إدراكه محصول أعمال العقول الإنسانية فى زمان معين من حياة البشر مع قدرته على المشاركة فى زيادة هذا المحصول أو تحسينه ؛ فللعقل البشرى فى كل مستوى أعلى من مستويات العرفان العام نضج أتمّ .

والجدير بالنظر إنما هو النضج الذى غذته أثمار العقول الإنسانية فى هذا الوقت ، والذى به يتيسر المثقف أن يشارك فى إنماء هذه الأثمار أو تحسينها ، فى أية ناحية يميل إليها ، فيكون لعمله شأن يذكر له ويشكر ، والأستاذ نفسه أدرى الناس بالفرق بين نضج عقله القوى قبل أن يعى كل ما استوعب من الثقافة الغربية ، أو المصرية ، وبين نضجه بعد ذلك ؛ لكن كان عليه أن يعارض رأى مناظريه ، فعارضه بطريقة حاذقة شفت عن هذا النضج الأخير ، أى عن ثقافة سامية

والخلاصة أن العقل يُعَد ناضجاً ، أو غير ناضج ، لا من حيث تأديته وظيفته فحسب ، بل من حيث قيمة ما وعى وما ينتج ، فهى قيمة مناسبة لدرجة علمه وثقافته ، والمهم إذن فى النضج إنما هو مستوى « الموضوعات والمواد التى يتناولها » عمل العقل ؛ ولذا ليس يمكن أن تنضج للشرقيين حياة عقلية إذا هم لم يأخذوا عن الغرب فى هذا العصر . أما إن هم اقتصروا على تراث الشرق بحاله المحدودة فى ثقافة عصر غابر كانوا كأنهم عائشون فيه ، ولمن أراد بنضج العقل ذلك النضج الأول ، أو أراد نضجاً عتيقاً ، أن يقول إن « التراث الشرقى كاف لنضج الحياة العقلية ، ولم يخل الشرق من العقول الناضجة قديماً وحديثاً »

فهارون الرشيد وابن خلدون كان كل منهما ناضج العقل فى مستوى الثقافة العربية فى زمانه ومكانه ، بعدما مضى على خروج العرب من شبه جزيرتهم قرنان إلى ثمانية قرون بنوا دولهم فيها على ما طوّعوا للدين والشريعة من نظم ومدنيات وفلسفات لأمم كاليونان والرومان والفرس وسواهم . أما جمال الدين الأفغانى فقد يكون فيما نعتوه به مواضع نظر لعلها تستدعى التحقيق العلمى المتحرر من المؤثرات الوجدانية والسياسية ؛ ولولا تفاهة ما أفاد من الثقافة الفرنجية لاختلف شأنه . . .

وليس يصح أن نوازن بين عقول أمثال هؤلاء الرجال وبين عقول تلاميذنا لتفاوت الأسنان والتجارب والمشاغل ، ولقلة المحصول فى التلمذة فضلاً عن أننا ما نزال فى سبيل التحصيل من الثقافة الحديثة ؛ ولسنا نشك فى أن بين تلاميذنا النجباء من لا يقل فى نضج العقل ، ذلك النضج الأول ، عن أولئك الرجال حين كانوا فى سن التلمذة

* * *

ألا إن البحار والجبال لم تحل دون التنقل والاتصال بين بنى الإنسان من قديم الأزمان حتى عصر الطيران . والناس إلى الآن يفرقون بين الشرقى والغربى ، وبين الأسود والأبيض ،

والأسمر والأصفر ؛ ولكن ما تحت الجلود لون واحد ، والأجسام جميعاً مكونة من عناصر وخلايا متماثلة ، لا يتميز بها جسم عن جسم إن حُلل لم يبق منه سوى أملاح ومواد قليلة ، لا تختلف في واحد من هذه الأجسام . وليس يستحيل عقلاً وقياساً أن يتكامل ما بدأ في الدهارير من تطور ، وأن يأتي على الإنسان حين من الدهر وطور يصل فيهما بالتجارب أيضاً والتقارب ، كلما صغرت عقبة المسافات بسرعة المواصلات ، إلى ثقافة واحدة شاملة ، تكبح من شر الغرائز ، وتهدى العقول والنفوس إلى تفاهم أتم ، وسلام أدوم وأعم ، في إنسانية أصفى وأسمى نحو المثل الأعلى

لكن مالنا وللفكر هنا في مثل هـذا المستقبل الخيالي الأبعد ؟ وحسبنا أن نلاحظ أننا منقادون لِسُنَن التطور ، يسوقنا توافر عوامله في وجهته الطبيعية ، ولا يمنعه اختلاف آرائنا في موضوع المناظرة إذ نحن في الواقع آخذون عن الغرب كما أخذ عنا ؛ وقد نفعل مثل ما فعل السلف الصالح حين صبغوا الفلسفة اليونانية في زمانهم صبغة عربية ، وكما فعل اليابان في عصرنا هذا

فلا يظنن أحد من الرجعيين أو من الشباب مُضللا بشهوة جاهلة ، أو بعاطفة غالبة ، أن المناظر الفاضل أراد في تأييده القوي لذلك الرأي القائل أن يقتصر الشرق العربي على تراثه ، ويهمل كل ما فيه ذرّة حديثة أو غربية ، ثم يعمل بهذا التراث وحده إلى أن يبلغ مستوى يسابق فيه الغرب في الرقي ؛ لأن ذلك مستحيل عملياً وإن جاز فرضه نظرياً ؛ وإذا نحن جارينا هذا الفرض الخيالي انتهى بنا التخيل إلى أن الشرق ، يوم يبلغ ذلك المستوى ، قد يجد أن الغرب رحل إلى السيارات يستعمرها أو ما شاكل هذا من الأعاجيب التي لا يعرفها العلم . وليس من المعقول أن يهمل الشرق كسب الإنسانية في قرون ليكد هو قروناً مثلها في تحصيله .

محمد توحيد السلحدار

من آثام الربيع !

[إلى صلاة جريحة ترتعش في زمني بعد الغروب ...]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

مَضَى رَبيعٌ وتَهادَى رَبيعْ
ولم يَزَلْ حَوْلي هُمودُ الشّتاءْ
لاَ عِطْرَ في الْفَجْرِ لِقَلْبِي بَدِيعْ
وَلاَ شَذًى للرُّوحِ عِنْدَ المَسَاءْ
يَمُرُّ في صَمْتِي النَّسِيمُ الوَدِيعْ
إعْصَارَ لَيْلٍ في مَغَانِي فَنَاءْ
وَمَا بِكَأْسِي غَيْرُ هَذَا الأَنِينْ
وَلاَ بِجُرْحِي غَيْرُ هَذَا النَّغَمْ
غَدَا زَمَانِي جَذْوَةً مِنْ حَنِينْ
وَعُمْرِيَ المَشْبُوبُ رُؤْيَا عَدَمْ !

* * *

نَزَعَتْ نَفْسِي مِنْ ضَجِيجِ الحَيَاهْ
وَطِرْتُ كَالنَّسْرِ لِأَعْلَى القِمَمْ
الْغَيْبُ حَوْلي سَابحٌ في أَسَاهْ
والصَّمْتُ مَشْبُوبُ الهَوى مُضْطَرِمْ
وَإِذْ عَلَى سَفْحِ اللَّيَالي « فَتَاهْ »
مَذْعُورَةُ الرُّوحِ كَشَجْوِ الحُلُمْ
سَأَلْتُهَا : عُمْرِي طَوَاهُ الْجُنُونْ
فَهَلْ بِكَفَّيْكِ لِجُرْحِي شِفَاءْ ؟
قَالَتْ : رَبِيعِي أَزْهَقَتْهُ السُّنُونْ
وَمَا بَكَّى غَيْرُ هَذَا الشِّتَاءْ !!

٧ ـ أومن بالانسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

[أكره أن أضايق القراء ببحث مطول فى مجلة ، ولـكن رغبة الأستاذ الـكبير الزيات ، وفيض الخاطر فى هذا الموضوع الخطير ، حببا إلى أن أعود إليه]

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة ذهبت إلى جهنم ! — نغمات وترتيلات جديدة — تناقض بين حياة الأرواح وحياة الأجسام — من الطبيب ؟ — قانون طبيعى يذنم لنفسه

الغربى إنسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوربيون بالحياة فى هذه الحرب بعد أن جنُّوا بها جنوناً فى وقت السلم . وهم لا يذكرون السلم فى هذه الحرب كما لم يذكروا الحرب فى فترة السلم

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان معتدلين آخذين حظاً صالحاً يعدل السلام ويعدل الحرب

هم فجروا فى فترة السلم : فتشهوا و كفروا وعبدوا الهوى واحتقروا الضعيف وشرهوا المال وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الـكثير كما يتنازع الأطفال !

وهم فجروا فى هذه الحرب، فلم يرعوا حرمات الحياة الإنسانية التى قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هـذه الحرب إذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الـكيفية النكراء التى تدمر ما عمروا وعمر الناس ...

من يصدق أن أوروبا البانية العاملة المعمرة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة فى سبيل الـكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الـكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا بين الأجناس المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلـكى والراديو والتلفزيون ، المرسلة « المبشرين » لتحرير الناس من الوثنية ، الدارسة للأنواع والأجناس ... هى هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمور والأسود، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء، المفتنة فى رسائل الآلام ، الهدامة للدور ، المحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

* * *

الأجسام العاجية الجميـلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !

الوجوه المشرقة البيضاء ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها

مسكينة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر والذهب الأسود والحديد ، ثم أوقدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمت فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة ، وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولـكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العالمة .

تحترق الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدى بنائيها ومقيمى صروحها العالية وجاءى مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج « والمونوكير » تتكشف عن العجوز الشوهاء السوداء المريضة الرسحاء العجفاء ساكنة الـكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف لشن الغارات !

الأم العاقلة العالمة تصيبها جِنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيها !

لندن وبرلين يصب عليهما الخراب والدمار صباً فيباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة وعلب أسرارها « وقماقم » أجنتها وولائدها ! ...

والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ فى القارة السوداء وأواسط التبت ترى هـذه الإنسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية . . . فتحمد الله على الحياة فى الغابات مع الأسود والقرود التى لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأقرباذين ؟!

***

كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة في لندن وباريس وبرلين ، وننسى نهاية رحلتنا في هذه الدنيا غرباء عابري سبيل ، لا نملك المكث ولا البقاء ، ونخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفل وتشيب الصغير وتفني الكبير وتلق بنا إلى العالم المجهول ...

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوربية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هي الإنسان المقصود بالحياة . وأما من عداها « فحيوانات بشرية » — كما تعبر المتلرية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها تعيش على هامشها وتسير في خدمتها ، وقبع اعتقادنا في أنفسنا تبعاً لذلك حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً وخلينا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن عناوين النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الإنسان الأوربي مقدس لدى نفسه وأممه ، فلا تحطيم لدنياه ولا نسف لنظم حياته ولا تمثيل به ولا سحق ولا نثر لأشلائه ...

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادي الدقيق الذي صار التنويع فيه والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة منفصلة عن روح الحياة في الإنسان فأخذنا نعيش بها عيشة آلية سخابة بدون وعي ووداعة وإحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الخاطئة ، وصححت أفهامنا الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل ، فإذا بنا نعود وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعاني الأزلية الخالدة التي نزغت من قلوب أنبيائنا واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب الحياة الذي وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...

وإذا المثل العليا تعود ذكراها إلى الألسنة والأقلام يرددها الساسة وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الأخاذة ، والإذاعة المريضة الواسعة

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة في طنبورها نغمة

وإذا بالنظم الأوربية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب وتماع تحت حرارة أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التي انتقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات المدامة

وإذا بالروح الإنسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود في جو مخضب بالدماء ، مندي بالدموع ، مطرز بالآلام ، إلى القلوب المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور ، ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منثور الأعواد ، عبثت به الرياح ، وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضم عوداً إلى عود ، وورقة إلى ورقة ، ويرفرف عليه بجناحيه حتى يطارد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ، ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

***

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها . فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف وتركوا الجانب الآخر ، وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها

فمن يدع ثغرة في بناء الحياة من غير سدها أوشك أن يدخل منها إلى البناء ما يأتي عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه

وكان جديراً بالإنسان الأوربي الذي يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه . . . أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام ، حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار

ولكنه لم يعرف بعد الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش في عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش في عصر الخرافات في طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر بأطباء الأرواح وعلاجاتهم كما كان يسخر بأطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم

فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به سيظل شقياً بتلك الأمراض التي هي أشد فتكا من الطاعون والسل والجدري وغيرها من الأمراض التي تهدم الإنسان وحده، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله... فمن أعراض أمراض الروح تلك القنابل والصواعق والحرائق التي تترك المدن التي صبت فيها جداول الدنية والعلوم والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة خراباً ودماراً كأن لم تَغْنَ بالأمس

ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطئ، أو يغلقونها دون رحمة الله أو يصيبونها بعاهات، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل... حتى يستقيم علاجه على أيدي الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير...

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة. بل ينبغي أن يكونوا قلة؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف...

ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و«الشهادات» بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس، ووصف العلاج

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق. وينبغي أن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من مواريث القديم، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث... أي ينبغي أن يكون علم النفس هو أساس التربية الروحية والدعوة إليها كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدي الحديث

وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المخابير والمسابير ويقيس كل ما فيه بأرقام لا تخطئ!

إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نقمة من الإنسان الذي لم يقم لها بعد وزناً. وإنه لجهل وسفه ألا يفطن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمي نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمي من غضب قوانين صحة الأجسام

إنه يخشى أن يمد يده في النار لئلا تحرق، أو يلقي نفسه في الماء لئلا يغرق، أو يقف في طريق قاطرة لئلا يسحق... ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيُسرَق، وأن يطمع فيُكرَه، وأن يستبد فيحارب؛ وأن يخل موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيحرضوه ويشقوا حياته بشقائهم...

كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد وهي:

إن الدولة كأن عضوي واحد كالجسم الواحد ذي الروح الواحد... فإذا سمحت لشيء منه ولو كان ظفراً أو منبت شعرة أو خطرة نفس أن يدخله الفساد، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك حتى لا تنتقل عدواه إليك... واشترك في إطفاء الحريق في بيت جارك قبل أن تمتد النار إلى دارك!

عبد المنعم خلاف

الى الأستاذ أحمد السنوسي

حضرة الفاضل الأستاذ أحمد السنوسي الاخصائي في الأبحاث النفسانية

بعد التحية وواجب الاحترام: يسرني أن أتقدم بهذا معبراً لسيادتكم عن عظيم تشكراتي وامتناني مع التقدير العظيم لشخصكم المحبوب، وذلك لما أسديتموه إلي من أياد بيضاء وخدمات لا تقدر بثمن، فلقد كان يا سيدي الأستاذ لعلاجكم لي أعظم الأثر في نفسي، ذلك الذي جعلني أبعث من جديد إلى حياة سعيدة هانئة وشعور قوي بأن لي صفة وقيمة في الحياة بعد أن كنت أتخبط في ظلمات الآلام الوهمية والتخيلات الكاذبة وعدم الثقة بالنفس وتخوفي في الأقدام على أي عمل من أعمالي المعيشية تلك التي بسببها أدى وجودي في الحياة عبس، لأن حالتي النفسية السابقة كنت أشعر بأنها مملوءة بالتعاسة وعدم الحظ، كل هذه الأوصاف التي ذكرتها هي أقل ما أتذكره الآن مما كنت فيه

فعليه أجد لزاما علي أن أتقدم برفع هذا لسيادتكم إعترافا مني بفضل علمكم النافع وخدماتكم الجليلة، كما وأني أرى من الواجب علي أن أسجل لسيادتكم (كلمة حق) على صفحات الرسالة كنصيحة مني ليطلعوا عليها الراغبين من الناس الذين يشعرون كما كنت أشعر أنا من الآلام النفسانية

وختاماً لا يسعني إلا أن أسأل الله أن يكثر من أمثالكم.

وتفضلوا بقبول عظيم إجلالي وفائق إحترامي

المخلص

مصطفى أحمد شيبه

مدرس لاسلكي سابقا



وحى المطبعة

كتب جديدة

للأستاذ سيد قطب

دائرة المعارف الإسلامية — علم اللغة — ضحكات إبليس — أسبوعان مع على ماهر فى السودان

لست أدرى لم يغمرنى شعور بالنشوة كلما أخرجت المطبعة العربية كتاباً جديداً ، وبخاصة فى هذه الأيام التى يرتفع فيها ثمن الورق وتكاليف الطباعة بينما تنصرف الأذهان عن الكتب وعن الدراسة إلى الأخبار اليومية وإلى ضجيج الحرب وويلاتها

بل أنا أدرى سبب هذه النشوة وهو الشعور بأن الأمة العربية حية نامية لأنها تقرأ ، والقراءة هى الدليل الذى لا يخطئ على الحيوية والتطلع إلى آفاق جديدة ومستقبل خير من الحاضر . فإذا كانت لا تزال تقرأ ، أى لا تزال تحيا وتتطلع فى هذا الجو الخانق الذى يشغل الذهن والقلب عن كل شىء ، والذى يبث اليأس والقنوط من الإنسانية ومن المعرفة والثقافة جميعاً ، فهذا دليل لا ينقض على أن فى هذه الأمة ذخيرة وأن فيها أملاً

وسبب آخر وهو شعورى ببطولة المؤلفين الذين يؤلفون ويطبعون وينشرون فيضطلعون بمهمات ثلاث لا يضطلع أمثالهم فى أوربا وأمريكا إلا بواحدة منها مع عظم الفرق بين البيئة والظروف التى تحيط بهؤلاء وهؤلاء

ولعل هذه البطولة تتجلى حين نعلم أن عدد الناطقين باللغة العربية فى جميع أنحاء العالم يبلغون حوالى الأربعين مليوناً ، نسبة المتعلمين فيهم لا تزيد على خمسة فى المائة (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) ، ونسبة المثقفين فى هؤلاء المتعلمين لا تزيد على عشرين فى المائة (٤٠٠٫٠٠٠) ونسبة القارئين فى هؤلاء المثقفين لا تزيد على ٢٥ فى المائة (١٠٠٫٠٠٠) مقسمين بحسب ميولهم وثقافتهم على أنواع التآليف المختلفة ، فأقصى ما يطمع فيه مؤلف أن يقرأ كتابه عشرة آلاف فى جميع أقطار العالم ، وهو رقم نظرى يهبط عند التطبيق العملى إلى النصف

بينما عدد الناطقين باللغة الإنجليزية مثلاً يبلغ نحو مائة وثمانين مليوناً نسبة المتعلمين منهم تبلغ نحو ٨٠ فى المائة ، ونسبة المثقفين فى هؤلاء المتعلمين لا تنقص عن ٥٠ فى المائة ، ونسبة القارئين من هؤلاء المثقفين لا تنقص عن ٥٠ فى المائة . فعدد من يطمع المؤلفون فى قراءتهم للكتب لا يقل عن ٣٦ مليوناً من القراء موزعين بطبيعة الحال على حسب مذاهب التأليف ورغبة كل فريق فى نوع معين منه بحيث يخص كل مؤلف نحو مليون قد يهبط عند التطبيق العملى إلى نصف مليون

وهذه الموازنة تبين مقدار بطولة المؤلفين بلغة العرب وضآلة الجزاء الذى ينتظرونه على مجهودهم بالقياس إلى زملائهم الإنجليز أو الفرنسيين . ومع هذا فالمشهورون منهم محسودون

جالت فى نفسى هذه الخواطر وأنا أتلقى المؤلفات الأربعة التى وردت فى عنوان هذا المقال ، فرددت قول القائل : « فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ! »

دائرة المعارف الإسلامية :

منذ سنوات خلت ران اليأس على كثير من نفوس الشبان المتخرجين فى الجامعة وسواها ، لأن أبواب العمل قد سدّت فى وجوههم ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، لأن المثقفين لا يجدون ما ينفقون فيه ثقافتهم ونشاطهم

وفى ظلام ذلك اليأس وضجة هذه الشكوى كان جماعة من الشبان يأوون إلى حجرة مفردة فى عمارة كبيرة وضعت عليها « لافتة صغيرة » باسم « لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية » ، ومن حولهم غرف كثيرة لأعمال كثيرة ليس بينها وبينهم صلة فى سمت ولا اتجاه !

وفى هذه الحجرة المنعزلة لم يأذنوا لظلام اليأس الذى يغشى حياة الشبان ، ولا لضجة الشكوى التى يتمزّقون بها فى هذا الظلام ، أن يطرقا بابهم ، ولا أن يعكرا عليهم لذة العمل الذى اتجهوا إليه فى عزيمة وصبر وسكون

عرفت فى ذلك الحين بعض أعضاء اللجنة ، وشاهدت خطواتهم الأولى فى عملهم المرتقب ؛ ثم مرت السنون وانقضت الأيام ، وتعاقبت أحوال وظروف على هؤلاء الشبان وعلى مصر والعالم ، ولكنهم لم يقفوا يوماً ما عن عملهم المختار ؛ وإذا بى أجد

لدى في هذا العام المجلد الرابع من مجهودهم الضخم وعددين من المجلد الخامس ، وإذا مصر والعالم العربي كله ينتفع بمجهود هذه الجماعة الصغيرة العاملة في سمت العلماء وتواضعهم ، وإذا المسلمون يعرفون من « دائرة المعارف الإسلامية » أكثر مما عرفوه من الكتب الإسلامية العربية ، لأن الدائرة تركز ما حوته تلك الكتب وتشير إلى مراجعه ، ثم تناقشه وتدلى بالآراء المختلفة فيه ، وتزيد عليه ما كتبه كثير من المستشرقين عن الشئون الإسلامية ، وتعليقات من كبار المسلمين الأحياء على كتابة المستشرقين ؛ وإذا الدائرة بعد هذا كله مرجع ثمين من مراجع الإسلام وبلاد الإسلام ، ودليل مرشد إلى المراجع الكثيرة في مؤلفات المسلمين وغير المسلمين

ولست أدرى كم قارئاً عربياً أقبل حتى اليوم على قراءة « دائرة المعارف الإسلامية » ، ولكنني أدرى أن كل مثقف عربي في حاجة لأن يقرأها ليجد فيها كثيراً جداً مما لا يعثر عليه إلا متفرقاً في مؤلفات عربية ضخمة ، ومما لا يعثر عليه في الكتب العربية على الإطلاق . وليس هذا بالغنم اليسير

علم اللغة

الدكتور على عبد الواحد وافى مؤلف هذا الكتاب شاب تخرج في « دار العلوم » ، ثم درس في فرنسا حتى حصل على الليسانس والدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، والآن هو أستاذ بكلية الآداب

وليس هذا كل ما يذكر للمؤلف ، فكثيرون تخرجوا في « دار العلوم » ، وكثيرون درسوا في أوربا ، ولكن قليلين هم الذين انتفعوا بدراستهم وثقافتهم كما انتفع الدكتور على عبدالواحد وكتاب « علم اللغة » مثل لهذا الانتفاع الناضج المكين

قرأت هذا الكتاب ، فإذا هو الأول من نوعه في اللغة العربية ، وإذا الجهد العلمي والدراسة والاطلاع على الكتب العربية والأفرنجية في موضوعه واضحة أشد الوضوح ، وإذا الرغبة في الكمال متجلية فيه كل التجلي ، فلم يكن هناك جهد يجب بذله في الإتقان لم يبذله المؤلف بوفرة وسخاء

والكتاب مقسم إلى ثمانية فصول بعد المقدمة والتمهيد هي : نشأة اللغة الإنسانية وتطورها ، لغة الطفل ومراحلها ومبلغ تمثيلها لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها ، فصائل اللغات وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات ، صراع اللغات ، تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات ، تطور اللغة وارتقاؤها ، أصوات اللغة ، حياتها وتطورها ، الدلالة وتطورها

وبعض هذه الفصول نشر في « الرسالة » ، ولعل الذين اطلعوا على ما نشر ثار في نفوسهم ما ثار في نفسي من الشوق لأن يقرءوا المؤلف كاملاً متسلسلاً متناسقاً . فلقد كان كثير من الأفكار عن اللغة متقطعاً مشوشاً ، حتى جاء هذا البحث فنظمه ورتبه وكساه الثوب العلمي ، وصور اللغة كائناً حيا حياة حقيقية واضحة الملامح ، تخضع لقوانين ثابتة ، لا للمصادفات والأهواء .

وفي هذا الكتاب درست خصائص اللغة التي تدل عليها عنوانات الفصول ، ودرست خصائص المؤلف في آن واحد ! فالوضوح والدقة والعناية بالشواهد والأمثلة ودراسة كل ما يتعلق بالموضوع وغربلته ومناقشة الآراء المختلفة والاستقلال في الرأي بعد هذه المناقشة ، واستخدام كل شوارد المعلومات المتعلقة بالفكرة ... كل هذه الخصائص تلمحها في الكتاب وتلمحها في صاحبه على السواء .

وقد طالعت بلذة وشغف الأمثلة التي أوردها المؤلف من دراسته لتطور اللغة عند « ابنته عفاف » وأعجبت بانتباهه وصبره على ملاحظتها فتلك بعض سمات العلماء ، وأخشى أن يكون تطور اللغة عند هذه الطفلة متأثراً بمصاحبتها لأبيها أكثر من مصاحبتها لأمها ، وأن يكون في هذا التطور شيء من البعد عن الطريق المألوف للأطفال الذين يتأثرون بأمهاتهم أكثر من آبائهم ؛ فإن طريقة المرأة في الحديث وقاموسها اللفظي ونوع معاملتها وتدريبها لطفلها غير طريقة الرجل في هذا جميعه .

وشيء وددت لو خلا منه الكتاب ، فقد عنى الدكتور بإثبات المصطلحات الأفرنجية مرة بالحروف اللاتينية ومرة بالحروف العربية مع ذكر ترجمتها . وتلك دقة مشكورة ، ولكنها تشوش ذهن القارئ العربي الذي لا يعرف لغة أجنبية ، والذي يعرف على السواء . وكان يكفى كتابة المصطلحات بالحروف اللاتينية مع إثبات ترجمتها العربية فالقارئ العربي الذي يعرف لغة أجنبية لا يحتاج لكتابة الاصطلاح الافرنجي بحروف عربية

ولا ينتفع به والذي لا يعرف لغة لا تجديه صورة الاصطلاح بالحروف العربية شيئاً وحسبه ترجمة

وذلك مأخذ شكلي صغير . أما الكتاب كله فتحفة للمكتبة العربية جدير بأن يفتح للنقد اللغوي والأدبي مجالاً جديداً في مطالعات القراء .

ضحكات ابليس

هي قصص قصيرة في كل منها ضحكة خفية أو غمزة متوارية تبدو فيها « المفرتة » التي تهبئ للعنوان العام !

وقد أصدر مؤلف هذه المجموعة الأستاذ صلاح الدين ذهني مجموعة قبلها باسم « رئيس التحرير » وقصة طويلة اسمها الدرجة الثامنة ، وهذه هي محاولته الثالثة

تضم هذه المجموعة أربع عشرة قصة قصيرة؛ والقصة القصيرة أصعب وأدق من القصة الطويلة التي تتسع للترسل والعرض والتحليل ، كما أن القصة أصعب على العموم من الرواية ، لأنها تستغني عن الوقائع الروائية ، فلا بد أن تستعيض عنها بعناصر أساسية في صلبها تعوض هذا النقص ، وتذيق القارئ لذاذة العنصر الروائي الجذاب

ومؤلف هذه المجموعة قد خطا خطوات تستحق الالتفات في مجموعته الجديدة ، ففيها خمس قصص على الأقل تعد ناضجة كاملة وهي نسبة كبيرة جداً في فن ناشئ في اللغة العربية لم يتعد حتى اليوم حدود المحاولات ، وهذه القصص هي : مانكان ، وقرينتنا النموذجية ، وكلاب وناس ، والمفريت ، والتوبة

والقصص الثلاث الأولى اجتماعية تلمس ثلاث جوانب في حياتنا الاجتماعية المصرية تصور أولاها « كاريكتيرا » صادقاً لكثيرين من المشتغلين بالمسائل السياسية ، الذين لا تتعدى وسائل نجاحهم في هذه المسائل أن يكون كل منهم « مانكان » دمية لا رأي لها ولا عقيدة إلا شرح آراء الآخرين ومناصرتها والتقلب على أشكالها ، وتصور الثانية « كاريكتيرا » حقيقياً لتفكيرنا في إصلاح الريف ذلك التفكير الذي يجنح للترف والرفاهية والظواهر ويغفل المشاكل الحقيقية ولا يحاول الاتصال بعقلية الريف الصميمة . وتصور الثالثة « كاريكتيرا » مؤلماً لتفاوت الحياة بين قوم وقوم في مصر ، حيث يموت النـاس في سبيل الكلاب المدللة المحبوبة عند الأسياد المترفين !

والقصتان الأخيرتان إنسانيتان ملونتان باللون المصري ، اختار لأولاها شخصية « وكيل المحامي » في الحي البلدي ، فأبدع في تصويرها مما إبداعاً ذكرني بالقصص الروسي البسيط العميق . واختار للثانية شخصية « الزوج المقامر » ، الهاجر للبيت والزوجة حين يستيقظ ضميره ؛ وقد استوحى فيها قصة « مفلسة نيم » للكاتب الفرنسي « أندريه ديماس » ، وبالفعل جاء أفقها أوسع من آفاق القصص الأخرى .

وفي القصص الباقية محاولات تنبئ عن تبلور وشيك ، وتركز مرقوب

أسبوعان مع علي ماهر في السودان

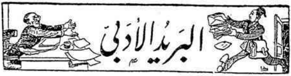
مؤلف هذا الكتاب الأستاذ « محمد حسنين مخلوف » شاب اشتغل بالصحافة حيناً من الزمن فانطبع تفكيره بالطابع الصحفي . وفي كتابه يبدو هذا الطابع واضحاً : العناية بالأخبار والدراسة السريعة المختصرة المفيدة للحوادث والظاهر ، والسرد الممتع الجذاب ...

ويبدو في هذا الكتاب « روح الدعاية » ، ولكن هذا لا يؤثر في شخصية الكتاب ، ولا يحجب ما فيه من لذة موضوعية وفائدة محققة ، فلست أنكر أن السودان كان قبل قراءتي لهذا الكتاب شيئاً غامضاً مجرداً من التعاطف الحي بينه وبين نفسي . كان فكرة سياسية في خاطري كل ما يجمعني به هو أنه شطر وادي النيل الذي يحتم على الإخلاص الوطني والكبرياء القوي أن أستمسك به ، وأدعو للاستمساك به ...

ولكن السودان قد استحال في نفسي بعد قراءة هذا الكتاب كائناً حياً يعاطفني وأعاطفه ، وقد شعرت بحقيقة الأواصر الدموية والعاطفية والعقلية والاقتصادية والسياسية التي تربط شطري الوادي ، وتعيد وقائع التاريخ الجامدة قصة حياة نابضة

وكل مصري في حاجة إلى الاطلاع على هـذا الكتاب ؛ وإن وزارة المعارف لتحسن صنعاً لو جعلته في متناول أيدي مدرسيها وطلابها ، إذا شاءت أن يحس الجميع إحساساً حياً قوياً بحقيقة العلاقة بين مصر والسودان ، وشاءت أن تمد القومية المصرية بجرعات منبهة ، وأن تحيل مصر والسودان فكرة واضحة في ذهن الناشئة . وهذا ما يجب أن يكون .

(حلوان) سيد قطب



مساجلات

١ — عرفتُ من كلمة الأستاذ « ا . ع » كيف كان وجه الخلاف بيني وبين حضرة صاحب العزة العوامري بك يوم تعقبته في جريدة (البلاغ) بمناسبة الكلمة التي نشرها في مجلة المجمع اللغوي عن (التجديف) وكنت ظننت أن تعقيبي كان يرمي إلى إقرار كلمة (التقذيف) لأن ورودها في مؤلفات الشعراني بهذا الضبط يشهد بأن المصريين لا يقولون (تجديف) إلا كما يقولون جال في مكان قال ، وأهل اليمن ينطقون القاف جاف ، وعلى سنتهم يسير بعض أهل الصعيد وبعض أهل الشرقية

وأختصر الطريق فأقول : يرى العوامري بك أن التجديف والتجذيف والتقذيف كلها خطأ ، والصواب : الجدف والجذف والقذف .

فهل أرجو من الأستاذ « ا . ع » أن يحكم بيني وبين العوامري بك ؟

إليه أقدم البرهان فأقول :

الجدف أو الجذف أو القذف لا يصوّر الحركة التي يثيرها المجداف أو المجذاف أو المقذاف . والعرب لا يضعّفون الفعل إلا وفقاً لنزعة لغوية تجعل الفعل المضعّف أصرح دلالةً في تعيين المعنى المراد ، ومصدر المجرّد لا يؤدي الصورة التي يؤديها مصدر المضعّف ، فقطعُ الحبْل غير تقطيع الحبل ، والمقذاف لا يَقذِف وإنما يُقذِّف ، كما تشهد عملية التقذيف

أما القول بأن كلام الشعراني لا يغني في الاستشهاد فمردود بأني لم أقصد الاستشهاد وإنما قصدت الاستئناس ، والشعراني يحكي كلاماً صحيحاً لا غبار عليه ، إلا في نظر المتكلفين ، وحُوشيَ العوامري بك من التكلف ، فهو من أعضاء المجمع اللغوي ، وهم رجال يبيحون الاستئناس بكلام العوام في مختلف اللهجات !

وسكت الأستاذ « ا . ع » عما قلت به من استيطان الألفاظ ، والاستيطان هو الاستوطان ، ولعنة الله على الإعلال فهو إعلال !

فهل يكون سكوته دليل القبول ؟

٢ — لما جمع الأُستاذ السباعي بيومي نخوراً على نخورين تعقّبه (ناقدٌ جليل) بكلام يأخذ قوته من السماع والقياس ، فما رأي الناقد الجليل إذا رجوته أن يتسامح في جمع نخور على نخورين وجمع غيور على غيورين ؟ وما رأيه إذا صارحتُه بأن التصحيح في أمثال هاتين الكلمتين أقوى في الإبانة من التكسير؟ وهل تكون كلمة غُيُر في مثل قوة كلمة غيورين ؟ في التكسير نفسه شواهد تؤيد القول بحرص العرب على زيادة المبنَى : فأسَد يُجمع على أُسْد وأُسود ، فهل تجري أسد على ألسنة الناس بقدر ما تجري أسود ؟

يضاف إلى هذا أن البلاغة قد توجب الخروج على القياس في بعض الأحيان ، وهل كان القياس في أغلب مناحيه إلا ضرباً من الشذوذ ؟ وإلا فبأي حق يكون (فَعيل) بصورة واحدة في التذكير والتأنيث إذا كان بمعنى مفعول ؟ وما الذي يمنع من الاستئناس بقول صاحب اللسان (امرأة دفينة) وقد جرى كلامه على الأصل في التفرقة بين المذكر والمؤنث ؟ والقِدْر بدون تاء في كلام الشعراء ، وهي قِدرة على ألسنة العوامّ في مصر ، فأي اللفظتين أفصح ؟ الأفصح هو قِدرة ، لأن التاء تؤكد التأنيث ، ولو كره العوامري والنشاشيبي

وخلاصة القول أني أدعو إلى التخفف من أثقال التصريف حين تطغى العلة الصرفية على المعنى اللغوي ، ولو كانت مراعاة التصريف نافعة في جميع الأحايين لراعاه العوامّ وهم أصدق إحساساً بمدلولات الكلمات ، لأن محصولهم اللغوي يتكون من ألفاظ تنبض بالحياة في كل وقت ، فالعوام يقولون : إوعَ ، والصرفيون يقولون : عِ . وهل تكون عِ أفصح من إوعَ إلا في نظر من يستخفون بحكم العقل ؟ والعوام يقولون في أغانيهم : إوْف بوعدك ، والصرفيون يقولون : ف بوعدك . فأي الكلمتين أفصح ؟

وخادم يذكر ويؤنث ، ولكن عوامّ مصر لا يقولون إلا خادمة في التأنيث ، فمن ينكر أنهم على صواب ؟ وأنا أسمي

الزوجة زوجة فى جميع ما أكتب ، ولا أرى رجلاً يقول : (سأستشير زوجى) إلا عرفت أنها عليه من القوّامين

٣ — يتوهم كثير من الشبان أن لى مكتباً فى دار الرسالة وأنى أشارك الأستاذ الزيات فى فحص ما يَرِد على الرسالة من أقوال الكتّاب والشعراء ، ومن أجل هذا يوجّهون إلىّ العتب عما يتأخر نشره من آثارهم الجياد !

وكنت أرجو أن يصح هذا التوهم الجميل ، لأشارك الزيات فى توجيه الجيل الجديد ، ولأنشر كلة الأستاذ محمد كامل سليم بك ، فما هى كلة هذا الأستاذ الجليل ؟

رجاه الأديب الأريب عبد الرحمن أبو العينين أن يوصى الأستاذ الزيات برعاية ما يقدّم إلى (الرسالة) من كلمات أو مقالات فرد عليه بهذا الجواب النفيس :

« لستُ أرى من مصلحة الأدب أن أقحمك بنفوذى فى ميدانه ، ولا أرى من مصلحتك أنت أن أظهرك بسلطانى بين فرسانه ، وإنما أرى من مصلحة الأدب ومصلحتك معاً أن تبرز مستقلاً بأسلوبك وبيانك ، وتشغل الناس بأفكارك وبرهانك ، وفى ذلك مصلحة ظاهرة للأدب وكرامة واضحة للأديب »

ويخطئ أشنع الخطأ من يتوهم أن التشجيع ينفع بشئ ، فالقوة الذاتية تقتحم الحواجز والحصون حين تستكمل عناصر الجبروت . والأديب الموهوب سيجد مكانه وإن تخلف عن نصرته ساسة الفكر وقادة البيان

٤ — لم أجب الأستاذ صلاح الدين المنجد فى سؤاله عن أسلوب الأستاذ أحمد أمين ، وقد أجاب عنى أحد الفضلاء فى جريدة « صوت السودان » فليرجع إلى ذلك الجواب إن شاء .

٥ — لبعض القراء مزاج غليظ ، وهو إرسال خطابات مترّمة وبدون إمضاء

وأقول إنى سأرفض جميع الخطابات المترمة ولو صدرت عن « الصدرية » فى بغداد ، فمن طاب له أن يداعبنى بهذا الأسلوب « المقبول » فليعرف أن دعابه مردود

٦ — يظهر أن مقالاتى فى مجلة الرسالة تضايق فريقاً من الناس فيتصدون للرد عليها فى بعض الجرائد والمجلات . فأرجو من أولئك الناضبين أن يرسلوا إلىّ ما يكتبون لأجيبهم إذا اقتضى الحال

٧ — تصل إلىّ من وقت إلى وقت بعض الكتب عن طريق الإهداء ، وأنا أرجو من أخطر فى باله من المؤلفين أن يرسل ما يرسل بثمن محول على البريد ، لأستطيع القول بأنى أشارك مشاركة جدية فى إنهاض التأليف ، ودفع ثمن الكتاب لا يعفينى من الإعلان عنه فى مجلة الرسالة بالمجان حين أراه جديراً بالثناء

وبهذه المناسبة أذكر أنى تلقيت مؤلفات فى غاية من الجودة ، منها (حكايات من الهند) وقد ترجمها الوطنى الصادق عبده حسن الزيات أحد نوابغ المحاماة والاقتصاد ، ومنها (مصر القديمة) للمؤرخ الكبير الدكتور سليم حسن بك ، و (علم اللغة) للباحث المحقق الدكتور على عبد الواحد وافى ، و (تاريخ الدروز) الذى ترجمه الكاتب المبدع أحمد تقى الدين ، و (الأشواق) للشاعر محمود أبو الوفا ، و (الأغاريد) للشاعر محمد فهمى ، و (المكتوب على الجبين) للرجل الكامل محمود تيمور ، وسأتحدث عن هذه المؤلفات بعد قليل

أما دائرة المعارف الإسلامية — وقد ظهر منها المجلد الرابع — فلا تحتاج إلى تنويه ، لأنها أظهر عمل قام به المتخرجون فى كليات الجامعة المصرية ، ولأن الأستاذ العقاد لم يترك فى الثناء على مترجميها مزيداً لمستزيد

زكى مبارك

فى اللغة

قرأت فى العدد ٤٠٥ من الرسالة الغراء قصيدة بليغة عنوانها (ميلاد نبى) ، للشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . فمنت لى ملحوظتان لغويتان أود أن أعرضهما على الأستاذ وهما :

١ — قال فى وصف الجاهلية :

متفرقين هناك ... لم يتفيئوا خيمة ... أو يعكوا ببناء

فعدى الأستاذ (يتفيئوا) باللام وهذا ما لا أعرفه .

قال الجوهرى : « وفيأت الشجرة تفيئة ، وتفيأت

أما فيها » . وفى الأساس : « وتفيّأتُ بالشجرة » . وفى التاج : « وعداه أبو تمام بنفسه فى قوله : فتفيأت ظله ممدوداً »

فهل اطلع الأستاذ على نص يتعدى فيه (تفيأ) باللام ؟

٢ — وقال :

ميلاد (أحمد) كان مولد أمة عربية وشريعة سَمْحاء

والذى أعرفه أن يقال : (سمحة) لا (سمحاء) ، فإن من معانى السماحة السهولة واليسر . فيقال : « عود سمح : بَيّن السماحة مستو لا أبن فيه » كما فى الأساس

وفى التاج : « وقولهم : الحنيفية السمحة : هى الملة التى ما فيها ضيق ولا شدة » هذا مبلغ اطلاعى . والله أعلم

(ا . ع)

حول الدين والفلسفة

قرأت كلمة الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور محمد البهى بصدد الرسالة رقم ٤٠٦ ، وفيه أراد كما يقول أن يضع أمام القارئ مادة للاجابة عما إذا كان من مصلحة الدين (أن يُفلسف بأن تشرح حقائقه بآراء الفلاسفة ؟) وهذا موضوع للرأى فيه مجال كبير ليس من همى الآن الأخذ بنصيب فيه، ولكن وقفنى عند قراءته ما ذهب إليه السيد الأستاذ من أن العقل الإسلامى جعل شعاره وهو يعالج ما أثارته الفلسفة الإغريقية من مسائل أنه (إذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال) لأن الحكمة ليست إلا مولدة الديانة وأن هذه ليست إلا متممة لتلك كما جاء فى مقابسات التوحيدى ، رأيت فى هذا الرأى وما تقدم به حضرة الأخ الكاتب لتأييده من سند ما يستوجب هذا التعليق القصير

١ — القارئ لهذين النقلين قد يظن أنهما جميعاً لأبى حيان التوحيدى نفسه ، والواقع غير هذا ؛ فالأول الخاص بانتظام الفلسفة اليونانية والشريعة ساقه التوحيدى فى أثناء عرضه لرأى إخوان الصفاء ، وطريقتهم فى الفلسفة ، والثانى الخاص بأن الحكمة مولدة الديانة الخ من كلام أبى سليمان السجستانى محمد بن بهرام شيخ أبى حيان ، وليس من كلام التوحيدى نفسه ، وكل هذا يظهر بالرجوع لصفحة ٤٦ وصفحتى ١٩٩ ، ٢٠٠ من المقابسات

٢ — من الحق أن فلاسفة الإسلام عنوا فيما عنوا به بفلسفة الدين والتوفيق بينه وبين الفلسفة لعوامل عدة ، منها أن الحكمة — كما يقول ابن رشد فى فصل المقال — هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، وهم فى هذا مسبوقون بمحاولات اليهود والمسيحيين فى هذه السبيل . ولكن لا أرى من الحق أن هذا كان شعار مفكرى الإسلام جميعاً . هناك كثيرون من مفكرى الإسلام لم يكونوا يرون هذا الرأى ، ولم يكونوا يذهبون إلى فلسفة الدين بشرح حقائقه بالفلسفة ، وأعنى بهم المفكرين غير الفلاسفة من متكلمين وغير متكلمين . ولعل من أقوى الأدلة لهذا ما ساقه التوحيدى ذاته فى أثناء كلامه عن إخوان الصفاء من أن شيخه أبا سليمان السجستانى صرح فى كلام له كثير بعد أن قرأ جملة من رسائل إخوان الصفاء ووقف على قصدهم ، ومنه التوفيق بين الدين والفلسفة ، من أنهم « تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا . . . لأنه أين الآن الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ من الوحى النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل[1] » ؟

بعد هذا أظن أن الأمر أوضح من أن نطيل فيه الكلام ويكفى هذه الكلمة التى لم أقصد بها إلا بيان الحق ، ولعلى أصبت ، وبالله التوفيق .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

إلى الأستاذ عبد المنعم خلاف

سيدى الأستاذ الزيات

اسمح لى بنشر هذه الكلمات التى تخطر لى إثر قراءة مقالات الأستاذ خلاف :

إن هذا هو الطراز من الكتاب الذى كنا نتشوق إليه فى العربية :

منطق قويم ، وفطرة سليمة ، وحرارة وحماسة وإخلاص ، وإدراك للمدنية الغربية ، وعدم تعصب عليها لمجرد التعصب ، وفهم لمحاسنها، وإدراك لروح الإسلام والدين، وعدم تعصب له لمجرد التعصب، وفهم لمحاسنه، وإدراك للمثل العليا الأخلاقية الصحيحة،

(١) المقابسات طبع المطبعة الرحمانية ص ٤٧ ، ٤٩



عطر المنصور

للأستاذ رفعت فتح الله

في إحدى قباب بغداد قرأ المنصور ورقة تشكو ، ثم قبضها في يده تتلوى ، وقد ظل يردد كلماتها ، يكاد يتمزع من الغضب ، كأنه سحاب راعد : في عينيه برقه ، وعلى جبينه قطره ، وفوق سمرته غيمه ، ولم يكد يخفف عن الورقة قبضته حتى انتفضت ، كأنها منخنقة فك خناقها ، فبدت آثاره على صفحتها أثناء ، وعلى كتابتها شحوباً !

ألقى المنصور الورقة من يده ، بعد أن ألقى ما فيها في نفسه ، ولقد ارتمد إذ رأى رعيته تشكو بعض عماله ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فأين يفر الظالم من شكاية المظلوم ؟ وكيف يواجه ظلم العامل حزم الخليفة ؟

وأخذ يفصل أنواع المظالم ، ثم ينثرها في رأسه ليرسل إليها تفكيره ، فتواردتها آراؤه كأنها حمام سراع إلى حب منثور ، وتزاحمت ، وتضاربت ، حتى أحس ضرباتها في رأسه ، ثم تلاقت الآراء على رأي سن عليه أمره ، وعقد عليه قلبه : أن يعزل العامل لظلمه ، ويأخذ ماله على عينه ، ويترك المال في بيت مفرد ، يسمى «بيت مال المظالم» ويكتب عليه اسم صاحبه

ولما استراح إلى رأيه نادى صاحبه ليأمره أمره ، ثم قام إلى مجلس أهله ليقضي حق الأهل ، فلقى في طريقه صبياً يلعب ، فمس فرع أذنه بسبابته ، فنظر إليه الصبي نظرة الصغر إلى الكبر ، فأخذه على ذراعه ، وغمز نغانغه ، وكلّه مداعباً ، ثم قبله على شغف ، وأرسله على مرح قائلاً : إذا كان الحزم مع الكبير مجازاة ، فهو مع الصغير مناغاة :

ونظر غير بعيد ، فإذا رجل يمشي مشية الأسيان ، يرسّ الحديث في نفسه فتتحرك شفتاه بما لا تسمع أذناه ، ويفتح عينيه ولكنه لا ينظر بهما ، كأنهما انعكستا على رأسه ، فتجسمت فيهما صور ما وراءهما من تفكير ، ولم تتصور أشباح ما أمامهما من منظور ، فهجس في نفس المنصور أنه يرى مظلوماً أصابه بعض عماله ، وارتجع إليه فكره الأول ، فلم يلبث أن أشار إلى الرجل الذاهل إشارة ضاعت في ذهوله ، فأومأ إلى عصا ألقيت في طريق الرجل فاعترضته حتى كاد يتعثر ، ولكنه اعتدل ولم يلتفت !

صاح حاجب المنصور : أيها الرجل !

فالتفت الرجل التفاتة كأنها إفاقة المغشيّ عليه ، ثم برق عينيه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين

قال المنصور : وعليك السلام يا أسير الشجون ! هل تذكر اسمك ؟ !

قال الرجل : سعيد ... سعيد ... يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : أسعيد أنت ؟

قال الرجل : ذاك اسمي لا وصفي ، والأسماء من اختيار الآباء ، والأوصاف من اختيار الأقدار !

قال المنصور : وكيف كنت مع الأقدار ؟

فتأوه سعيد ، وقال :

— جعلتْ حياتي تتلوّن تلوّن الزمن : من سواد الليل إلى بياض الصبح ، ومن حمرة الهجير إلى صفرة الأصيل ... فلقد كان مشرق شبابي مغرب والدي ، وكان ميراثي منه وفراً من الوصايا ونزراً من الدراهم ، فما مددت يدي إليها حتى بعثت فيهما

وأفكار سديدة بارعة ، وبيان رائع .

هل تدري يا سيدي خلاف أننا نقرأ مقالاتك المرة تلو المرة تلو المرة ، ثم لا نكتفي ، ونحس بدافع يدفعنا إلى الإعادة ...

إننا نود لو نتلوها كل يوم ، ولكن يعوقنا عن ذلك أنها غير مجموعة في كتاب

إن كل ما تكتبه جميل ورائع وحبيب إلى نفوسنا لصيق بها

هذه كلمات صوادق . إنها ليست لك ؛ إنما هي للفكرة التي تدعو إليها وتدافع عنها ، إنها لنا (المقالات) ... لأنك تخدمنا بها وتفيدنا .

(دمشق) بشير صادق

نشطة العمل ، كأنها رقية التكسب ، فتاجرت وأخلصت للتجارة حتى برّت بي وبررت ، لله درّها ! فقد صرت أعد أوقاتي بالدنانير حتى خيل إلى أن أشعة الشمس تجمد في يدى ذهباً !

فحدقه المنصور بعينين تطل منهما نفسه المحبة للمال ، وقد كان المنصور يجمع في صفاته قوة الحزم ورجاحة الرأى وحب المال وطهارة اليد . فسطع في عينيه من معنى الذهب بريقه ، ثم غلب عليهما من معنى الحزم حديده ؛ ثم قال : أليس في هذا سعدك يا سعيد ؟ فكيف احتضرك الهم ؟

قال سعيد :

— لقد كنت أمس قريرَ العين بهيجَ القلب ، إذ رجعت من سفرة راشدة — في تجارة رابحة — فدفعت إلى امرأتي ما أحضرتُ من كرائم الأموال ، وطفقتُ أشغلُ يدي بتصفيفها ولساني بتحسينها ، حتى أخذتني نشوة الظفر بما كسبت فأهديتُ ، وأسرعت المرأةُ القبول ... آه ! يا لها من مجهول !! تركتها ضائق النفس ، وخرجت إلى الناس أؤدى حقوقاً لزمتني بالإياب ، ثم رجعت إلى منزلي مع الليل ، فأسرّ إلى حُلماً مُنعماً ، تشيع فيه أضواء الذهب ، وتنوس عليه أهداب الديباج ، حتى استرد الليل بُردته السوداء ، وطوى فيها حلى الهنيء ، فصحوت أمد يدى ... قالت المرأة : مالك ؟ قلت : أين المال ؟ قالت : المال أخذ ... أحسست أن عقلي أخذ معه ، وقمت أتفحص عن الجدار فما وجدت نقباً ، وطفت أتوسم في الأثاث فما رأيت أثراً ، فأي لص هجم على بيت كأنه حصن ؟ وكيف تسور أو تدخل ؟ تخيل لي أن عقلي قد اختنق ، وأن صدرى قد اشتعل ، فسرت نهبان هائماً كمحترق يفر من نار شبت فيه ! ! . . . وهكذا رأيت قرة عيني تسيل في دموع كأنها ينبوع ! . . . وأحسست بهجة قلبي تطير في خفقان ، كأنها غربان ! . . .

قال المنصور : لعل المال مأخوذ غير مسروق

فنظر إليه سعيد نظرة سائلة وهو يردد قوله : مأخوذ ! مسروق ! ... مأخوذ ! مسروق ! ...

فأطرق المنصور عنه قليلاً ، ثم قال : منذ كم تزوجت امرأتك ؟

قال سعيد : منذ سنة

قال المنصور : شابة أم مسنة ؟

قال سعيد : شابة

قال المنصور : ألها ولد ؟

قال سعيد : لا !

قال المنصور : أبرْزة إلى الرجال ، أم مقصورة في الحجال ؟

قال سعيد : برزة

قال المنصور : جميلة ؟

قال سعيد : إن وجهها كالدينار : أخذت بريقه واستدارته

فهمس المنصور : وتركت لك رنينه وصفرته

ثم قال : بروقك جمالها إذن !

قال سعيد : إنها كالبدر يا أمير المؤمنين

قال المنصور : ذكية ؟

قال سعيد : إن ذكاءها هو السماء التي تُطلع بدرَها

قال المنصور : تلك امرأة حبيبة

قال سعيد : وذاك اسمها يا أمير المؤمنين

قال المنصور : والمال الفقيد حبيب أيضاً ! وابتسم ، فقز سعيد وابتأس !

قال المنصور : لا تبتئس ، فعسى أن يرجع إليك مالك

ثم دعا بقارورة طيب كان يهتم به ويختص ، وقال : يا سعيد هذا طيب يتفاءل به ، فخذ منه شيئاً عسى أن يكون جلاء همك وصقال نفسك ، واستبشر بحسيسه كأنه حظ عصر لك في مدهن ! وتمتع من شميمه كأنه من أرواح الجنة !

فأخذه سعيد وقبله كأنه تميمة سعادة ، واصطانه كأنه مفتاح خزانة ؛ ثم سلم على الخليفة ، وانقلب إلى أهله وقد انتشر الأمل على أسرتيه ، كما انتشر الطيب على عطفيه . فلما دخل على امرأته قالت : إني أشم عطراً يتضوع منك . قال : ذاك عطر وهبه لي أمير المؤمنين ، وإني واهب لك منه شيئاً عسي أن يكون لبيتنا فألاً ميموناً . فابتسمت شاكرة للزوج الواهب، ثم انصرفت مفكرة في العطر الموهوب

دعا المنصور أربعة رجال من ثقاته وأراهم طيبه ، وأشمهم منه ، ثم قال لهم : أقعدوا على أبواب المدينة ، فمن مر بكم وعليه

شيء من هذا الطِّيب فأتونى به . فذهبوا حيث أمرَهم الخليفة ، وجعلوا يتربّصون بمن يمرُّ بهم أريجُ الطيب ، حتى ضمّ الليلُ شملته السوداء ومضى ، وبث الصبح فى أطماره ؛ فرقمت الأرض بالأقدام والظِّلال ، وهم يترقبون ويتشممون ، كأنهم من كِلاب الصيد فى توقع الفريسة ، وإذا رجل قد توهج منه الطيب يجتاز أحد الأبواب ، فانقض عليه أحدهم انقضاض عتاق الطير ؛ فاهتز اهتزاز فراخ الصيد ، وغيّمت الدهشة فى رأسه ، فادت نفسه ، وحارت عينه ، وسأل فلم يجد جواباً ، ونظر فلم يَرَ مناصاً ، وسيق تائهَ الساق حتى قدم إلى الخليفة ، فتقدم ، ثم سلم تسليم مروّع لا يدرى من أين رَوْعه ؟

قال المنصور : ما الذى أقدمك ؟

فنظر الرجل إلى الذى ساقه وقال : الجواب عند هـذا يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : ما اسمك ؟

قال الرجل : حبيب !

قال المنصور : ما أحب اسمك !

ثم مد رأسه من وراء أنفه وتنشّم ، ثم قال : وما أطيب طِيبَك ! ...

قال حبيب : هو نفحة من يُمْنك يا أمير المؤمنين

فضحك المنصور ، واستعجب حبيب من ضحكه

قال المنصور . أنّى لك هذا الطِّيب ؟

فارتد حبيب كأنه لديغ ، ونظر نظرة قد تخشعت جزعاً

فتبسم المنصور ، وقال : لا تَرُع ، فما أريد بك سوءاً ، وإنما كان مثل هـذا الطيب يفوح من سرقة بالأمس ، وقد باح به جسمك اليوم ، وإنى أخشى أن يلصق بك ما تهم به !

قال حبيب : يا أمير المؤمنين ...

قال المنصور : ... وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ...

قال حبيب : أنا ...

قال المنصور : وأنا أرى على وجهك مسحة براءة ، وعلى يديك مسة طهارة ، ولـكنى أمرت أن أحكم بما ظهر ، والله ما بطن .

قال حبيب : ليس عندى من المال قديم ولا جديد إلا هدية أهداها إلى من لا أشك فيه

قال المنصور : ومن أهداها إليك ؟

فاعتُقل لسان حبيب فى فمه !

قال المنصور : لقد رأيتك تدرأ عن نفسك حتى كدت تبرأ لولا غموضة تريب تلك الهدية ، فهلا استكملت البراءة ، ونزعت عن يديك تهمة ليست لبوساً لك ! وإنى موسع عليك ومخيرك : فإما أن تذكر من أهدى إليك فتجلو صفحتك ويقلب القضاء صفحته ؛ وإما أن تنزل عن الهدية لنعرضها على صاحب المال فتسلم من آخر شىء يعلق به الاتهام ، ويكون ذلك أغنى عن التصريح وأنفى للشك وأبلغ فى العذر

كاد حبيب يتكلم فيسلم ، ولـكن قلبه خفق فسكت ، ودارت عينه ، ودار من ورائها رأسه ، لا يدرى : أيمسك المال على بغض يبعثه اتهام الأمير ؟ أم يتركه على حب يوحيه إهداء الحبيب ؟ فاما أن يذكر مهدية المال خلاصاً فنفسه دون ذلك فداء ، والفداء من سنة الحب ، وما كان لفم طهره الحب أن تدنسه الوقيعة ! ... ولقد تعجب حبيب من صروف الأقدار فى تصريف الأموال ، فإنه ما كان ليعبأ بمال حتى يَفتن فى جمه ويُفتن بكنزه ، وما تكاثفت سحابة من كسبه حتى تقاطرت فى صرفه ! كأن المال زائر عابر : ما سلم حتى ودع ! ولـكن هـذه الهدية عريت عنده من معنى المال ولبست معنى القلب ، فما يحسب رنين ذهبها إلا صَدَى الخفوق ! ووثب خياله إلى رجل هنالك قد تجمد قلبه جمود الذهب حتى عد خفوقه رنيناً ! . . . رجل هنالك ! . . . وأزعجه الخيال بوثبته ، فصحا من غفوته ، فإذا الخليفة يجسه بعينه ويجانبه صاحب الشرطة !

قال المنصور لصاحب الشرطة : خذ هـذا الرجل ، فخيّره فى ما خيّرته ، وأمهله ، فعسى أن ينجده وقته ، فإن أبى فصب عليه من العذاب ألفَ سوْط !

(البقية فى العدد القادم)

رفعت فتح الله

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)